الجزء الرابع — المجلد السادس والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

ربيع الاول ١٤٠٦هـ
كانون الاول ١٩٨٥ م

سِمَاتُ سُفَرَاءِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم

(القسم الثاني)

١ ـ الاسلام والانتماء اليه

اللواء الركن محمود شيت خطّاب

(عضو المجمع)

الدّاعي الأوّل إلى الله تعالى، هو رسوله محمد بن عبدالله عليه الصّلاة والسّلام. قال تعالى : (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ومُبَشِّراً ونَذِيراً ، وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بإذنه وسِرَاجاً مُنِيراً) (١) ، وقال تعالى : (وادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيم) (٢) ، وقال : (وادْعُ إِلَى رَبِّكَ ولاَ تَكُوْنَنَّ مِنَ المُشْرِكِيْن) (٣) ، وقال تعالى : (قُلْ : إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُوْ وَإِلَيْهِ مآب) (٤) ، وقد ظلّ عليه الصّلاة والسّلام يدعو إلى ربه تبارك وتعالى حتى التحق بالرّفيق الأعلى .

والدّعوة إلى الله هي وظيفة رسل الله جميعاً ، ومن أجلها بعثهم الله تعالى إلى الناس ، فكلهم بلا استثناء دعوا أقوامهم ومَنْ أُرسلوا إليهم إلى الإيمان بالله وحده وعبادته دون سواه .

والأُمّة الأسلاميّة شريكة لرسولها في وظيفة الدّعوة إلى الله ، قال تعالى : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ ، تَأْمُرُوْنَ بالمَعْرُوفِ

---

(١) الآية الكريمة من سورة الأحزاب (٣٣ : ٤٦) .
(٢) الآية الكريمة من سورة الحج (٢٢ : ٦٧) .
(٣) الآية الكريمة من سورة القصص (٢٨ : ٨٧) .
(٤) الآية الكريمة من سورة الرعد (١٣ : ٣٦) .

وتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ) (٥) ، والمكلف بالدّعوة إلى الله تعالى هو كلّ مسلم ومسلمة ، لأنّ الأُمّة الإسلاميّة تتكوّن منهم ، فكلّ بالغ عاقل من الأُمّة الإسلامية مكلّف بهذا الواجب ذكراً كان أو أُنثى ، فلا يختص العلماء بأصل هذا الواجب ، لأنّه واجب على الجميع ، وإنّما يختصّون بتبليغ تفاصيله وأحكامه ومعانيه ، نظراً لسعة علمهم به ومعرفتهم بجزئياته . ويزيد الأمر وضوحاً في أنّ المكلّف بالدّعوة إلى الله تعالى هو كلّ مسلم ومسلمة ، هو قول الله تعالى : (: (قُلْ : هذه سَبِيلِي ، أَدْعُو إِلى اللهِ على بَصِيرَةٍ أَنَا ومَنْ اتَّبَعَنِي ، وسُبْحَانَ اللهِ وما أَنا من المُشرِكِينَ)(٦) فأتباعُ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، يدعون إلى الله على بصيرة ، أي على علم ويقين ، كما كان رسولهم صلّى الله عليه وسلّم يدعوهم إلى الله على بصيرة ويقين . ومعنى ذلك أنّ من اللّوزام الضّروريّة لإيمان المسلم أن يدعو إلى الله ، فإذا تخلّف عن الدّعوة دلّ تخلفه هذا على وجود نقص أو خلل في إيمانه ، يجب تداركه بالقيام بهذا الواجب ، واجب الدّعوة إلى الله تعالى ، وفي الحديث الشّريف الذي رواه الامام البخاري عن ابن عباس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال : « فَلْيُبَلِّغ العلْمَ الشاهدُ الغائبَ » (٧) .

والدّعوة إلى الله تعالى ، قد تؤدى بصورة فرديّة ، وقد تؤدى بصورة جماعية ، وقال تعالى : (ولْتَكُنْ مِنْكُم أُمّةٌ يَدعُونَ إلى الخَيْرِ ويأْمُرُونَ بالمعرُوفِ ويَنْهَوْنَ عن المُنْكَرِ ، وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ) (٨) ، والمقصود بهذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأُمّة متصدّية للدّعوة ، وإن كان ذلك واجباً على كلّ فردٍ من الأُمّة . بحسبه .

---

(٥) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ١١٠) .
(٦) الآية الكريمة من سورة يوسف (١٢ : ١٠٨) .
(٧) صحيح البخاري (١/٦٢ ـ ٦٣) .
(٨) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ١٠٤) .

وأسباب تكليف المسلم بالدّعوة إلى الله تعالى عز وجلّ، هو ان الله أرسل رسوله محمداً صلىّ الله عليه وسلم إلى النّاس جميعاً : (قُلْ : ياأيُّهَا النَّاسُ إنِّي رَسُوْلُ اللهِ إلَيْكمْ جَمِيْعاً) ، (٩) ورسالته عليه الصلاة والسّلام باقية إلى يوم الدِّين ، ومقصدها هداية الخلق أجمعين ، ولهذا كانت رسالته رحمةً للعالمين : (وَمَا أرْسَلْنَاكَ إلاّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْن)(١٠) وكان المسلمون شهداء على الناس ومبلغي رسالة الله تعالى إليهم بعد نبيِّهم : (وكَذلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطا ، لِتَكُوْنوا شُهَدَاءَ على النَّاس وَيَكونَ الرَّسُوْل عَليكُمْ شَهِيْداً) (١١)

كما أنّ بقاء الشّرك والكفر في الارض ، يؤثر عاجلاً أو آجلاً في معاني الإسلام القائمة في أيّ جانب من جوانب الأرض ، ولهذا يمنع الإسلام المسلم من البقاء في ديار الكفر ، ويأمره بالتحول إلى ديار الإسلام لئلا يُفتتن في دينه أو يمرض قلبه أو يُسلب إيمانه ، قال تعالى : (إنّ الَّذِيْنَ توَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ ظالِمِيْ أنْفُسِهِمْ ، قالوا فِيمَ كُنْتمُ ؟ قالوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِيْنَ في الأَرض ، قالوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهَا جِروا فيها ، فأولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنمُ وسَاءَتْ مَصِيْرا) (١٢) ، وعلى هذا فقيام المسلم بدعوة أهل الشّرك والكفر إلى الله وإلى دينه يفيده ويقيه شرور الكفر .

والسبب الثالث هو دفع الهلاك والعذاب عن المسلمين ، قال تعالى : (واتَّقُوا فِتْنَةً لاتُصِيْبَنَّ الذين ظَلَموا منكم خاصَّةً ، واعْلموا أنَّ اللهَ شَدِيْدُ العِقَاب) (١٣) ، قال ابن عبّاس رضى الله عنهما : « أمر الله

---

(٩) الآية الكريمة من سورة الأعراف (٧ : ١٥٨) .
(١٠) الآية الكريمة من سورة الأنبياء (٣١ : ١٠٧) .
(١١) الآية الكريمة من سورة البقرة (١٤٣/٢) .
(١٢) الآية الكريمة من سورة النساء (٤ : ٩٧) .
(١٣) الآية الكريمة من سورة الأنفال (٨ : ٢٥) .

المؤمنين ألاّ يُقِرُّوا المنكر بين أظهرهم ، فيَعمّهم العذاب، أي يصيب الصّالح والطّالح » ، وروى الإمام مُسلم أنّ زينب بنت جَحْش سألت النبي صلى الله عليه وسلّم : « يارسول الله ! أنهلك وفينا الصّالحون ؟! » ، قال : « نعم ، إذا كثر الخَبَث » (١٤) .

وإذا تبيّنَ أنّ الدّعوة إلى الله واجب على كل مسلم ، فإنّ هذا الواجب يتحدّد بقدر حال الدّاعي وقدرته ، لأنّ القُدرة هي مناط الواجب وقدره ، فمن لايقدر لايجب عليه ، ومن يقدر فالوجوب عليه بقدر قدرته ، ويدخل في مفهوم القُدرة العلم والسُّلطان ، فيجب على العالم مالايجب على الجاهل ، ويجب على ذى السُّلطان ما لايجب على غيره من آحاد المسلمين . ولهذا فإنّ الله سبحانه وتعالى خصّ بالإنذار والوعيد أهل العلم ، وحذّرهم من كتمان الحق الذي عرفوه . قال تعالى : (إنَّ الَّذِيْنَ يَكْتُمونَ ماأنْزَلْنَا من البَيِّنَاتِ والهُدَى مِن بَعْدِ مابَيَّنَّاهُ للنَّاسِ في الكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهمْ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُوْنَ . إلاَّ الَّذِيْنَ تَابُوا وأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا ، فأُوْلَئِكَ أَتُوْبُ عليهم وأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيْمُ) (١٥) .

والنوع الثاني من القدرة ،وهو السُّلطان والتّمكين في الأرض، قال تعالى : (الذينَ إنْ مَكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمَروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنْكَر ولله عاقِبَةُ الأُمور)(١٦)،وقال المفسرون في المراد من أهل التّمكين : الولاة ، ومنهم مَنْ أدخل فيهم العلماء (١٧) ، والأوّل أظهر. قال ابن تيمية : « إنمّا نُصب الإمام ليأمـر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهذا هو مقصود الولاية » (١٨) .

(١٤) تفسير القرطبي (١/٣٩٠) .
(١٥) الآيتان الكريمتان من سورة البقرة (٢ : ١٥٩ ـ ١٦٠) .
(١٦) الآية الكريمة من سورة الحج (٢٢ : ٤١) .
(١٧) تفسير القرطبي (٢/٧٣) .
(١٨) السياسة الشرعية لابن تيمية (٧٧) .

ومكانة الداعي إلى الله في الإسلام مكانة عظيمة جداً ، قال تعالى : (وَمَنْ أَحْسَنَ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلى اللهِ وعَمِلَ صَالِحاً وقالَ إِنَّنِي من المُسْلِمِيْنَ) (١٩) .

وإذا كان المسلمون كلّهم دُعاة إلى الله تعالى ، فرسل النبي صلى الله عليه وسلّم إلى الملوك والأُمراء في زمانه هم صفوة الدُّعاة ، لأنّهم يتميّزون بسمات خاصة تؤثّر في الملوك والأمراء الذين يخشون على زوال سلطانهم إذا أسلموا ، والذين لايسهل إقناعهم كما يسهل إقناع غيرهم ، ويصعب لقاؤهم والحديث معهم ومناقشتهم كما يتيسّر ذلك بالنسبة لغير ذوي السُّلطان من الناس

وأوّل هذه السِّمات : الإيمان العميق ، وهو يقين المسلم بأنّ الإسلام حق خالص ، لأنّه هدى الله ، وماعداه باطل وضلال قطعاً ، قال تعالى : (قُلْ : إِنَّ هُدَى اللهِ هو الهُدَى) (٢٠) ، وإيمانه العميق ثابت لايتزعزع مهما صادفته من مِحَنٍ وشدائد ، ومهما كان حال الكفرة من قوّة ومَنَعَة .

ولايضعف إيمان المؤمن الحقّ انصراف الناس عنه وعدم إجابتهم له ، كما لايدلّ انصراف النّاس عنه أنّه مقصّر في دعوته مادام قد أفرغ جهده ، فالتقصير يُعرف — إنْ وجد — من قِلّة ما يقدّمه الدّاعي للدعوة لامن عدم إجابة المدعوّ (٢١) .

وإيمان الصّحابة رضوان الله عليهم إيمان عميق ، وولاؤهم للإسلام مضرب الأمثال ، يكفي أن نذكر أنّ ثمانين بالمئة من الصّحابة استشهدوا ،

---

(١٩) الآية الكريمة من سورة فصلت (٤١ : ٣٣) .

(٢٠) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ١٢٠) .

(٢١) أصول الدعوة — د. عبدالكريم زيدان — (٢٩٧ — ٣٢٠) — ط ٣ — بغداد ١٣٩٦ هـ .

فقد قضى الاسلام في أيامهم على العصبية القبليّة والجنسيّة وأصبح الولاء للإسلام وحده ، كما كان الانتماء الكامل للإسلام وحده لا إلى غيره من أواصر النّسب والقُربى والدّم والمكان ، وكان سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم من جملة أصحابه ، فهم مثلهم في عمق إيمانهم ، وولائهم للإسلام وحده ، وانتمائهم لهذا الدين دون سواه .

والذي أردتُ أن أنصّ عليه ، هو أنّ من أوّل سِمات السّفير المسلم ، هو الإيمان العميق بالإسلام ، والولاء المطلق له ، والإنتماء إليه وحده لا إلى غيره ، لكي لايترك السفير في مزالق الانحراف ، لأنّه بعيد عن العيون ، يتعرض للاغراء المادي والمعنوي ، فيعف من المغريات والانحراف في جميع الظروف والأحوال .

٢ ـ الفصاحة

كان عرب شبه الجزيرة العربية على عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم معروفين بالفصاحة ، لأنّ اختلاطهم بالأعاجم كان قليلاً جداً ، فحافظوا على سلامة لغتهم العربية ، وكانت العربيّة الفُصحى هي السّائدة ، وكان الخطأ في اللغّة صَرْفاً و نَحْواً وبلاغة قليلاً جداً ، وكان هذا الخطأ إذا وقع من العيوب التي تُعزى إلى مَنْ يَقَعُ فيها بكثير من التّقريع واللّوم والتّشنيع .

وكان أكثر القادرين من العرب يُرسلون أطفالهم الى البادية ، لتربيتهم في جو عربيّ خالص ، يتلقّون فيه العربيّة الفُصحى الخالية من الشّوائب والدّخيل ، تلك العربية الفُصحى الدّارجة على ألسنة الاعراب .

وقد كان سفراء النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم كلّهم بدون استثناء ، من عرب شبه الجزيرة العربية المعروفين بالفصاحة : خمسة منهم من قريش قوم النبي صلى الله عليه وسلّم ، وهم جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن حُذافة

السَّهْمِي القرشي ،وسَلِيط بن عمرو العامريّ القرشِيّ،وعمرو بن العاص السَّهْمِيّ القُرَشِي ، والمهاجِر ين أبي أُمَيّة المخزوميّ القُرَشِيّ ، وكان حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ اللَّخْمِيّ ، وشُجاع بن وَهْب الأسدي ، والعَلاء بن الحَضْرَمِيّ ، وأبو موسى الأشعري، حلفاء قسم من بُيوتات قريش في مكّة ، وقد نشأوا وعاشوا مع قريش ، فهم من قريش بالولاء وباللّغة . أما عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْري ، فكان من بني ضَمْرة التي تقطن المنطقة الكائنة بين مكّةَ والمدينة ، حول موقع بَدْر ، وكان كثير التردّد على مكّة ، وكان بنوضَمْرَة معروفين بالفصاحة . أما دِحْيَة بن خَلِيفة الكلبيّ ، فهو من قُضَاعَة المشهورة بالفصاحة ، وكان عمرو بن حَزْم الأنصاري من أهل المدينة ، ومن بني الخَزْرَج الأنصار الذين عُرفوا بالفصاحة ، كما انّه اختلط اختلاطاً وثيقاً بالمهاجرين وأكثرهم من قريش ، فأصبح أكثر فصاحةً وأقرب إلى لهجة قريش المتميزة بالفصاحة العالية .

أما جرير بن عبد الله البَجَلِيّ والحارث بن عُمَيْر الأَزْديّ ، فهما يمانيان ، والحكمة يمانية ، والفصاحة يمانية ، وكان أهل اليمن فصحاء لايُعَدُّون ولايُحْصَوْن .

من هذا المجتمع العربيّ الأصيل ، المتميزّ بالفصاحة ، اختار النبي صلى الله عليه وسلّم سفراءه ، من الذين برَزُوا في مجتمعهم بفصاحتهم ، فهذا المجتمع الفصيح يتفاوت في فصاحة أفراده ، فليس كلّهم في الفصاحة سواء ، فكان السُّفراء النَّبَوِيون قِمَّةَ الفصاحة وقِمَّة الفصحاء ، لأنّهم خِيار من خِيار ، وصفوة الصَّفوة في الفصاحة والبيان .

ولعلّ في دراسة حياة سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، ما يدلّ على ذلك ، ويشير إليه ، ويُثبته بالدّليل القاطع ، الظّاهر بوضوح في أقوالهم ومناقشتهم وأسلوب عرضهم للمهمة التي جاءوا من أجلها ، وفي طريقة

الدّعوة الى الله تعالى وإلى الإسلام، وبالردّ على المعترضين ، ومدافعة المنحرفين ومحاوره المتشككين .

وعَرْضُ كلّ هذه الأمور على الملوك والأمراء ، بحاجة إلى فصاحة وإلى فصيح .

وليس بالإمكان ذكر أمثلة من فصاحة سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم كافة ، فقد ذكرنا مافيه الكفاية في الحديث على سِيَرهم ، وقد يكفي ذكر نماذج قليلة منها ، ومَنْ يهفو إلى التّفصيل ، فله أن يرجع إلى سِيَرهم المفصّلة الواردة في هذا الكتاب إن أراد ، أو إلى المصادر المعتمدة التي أشرت إليها في الحديث على سيرة كلّ سفير .

ولعلّ مناقشة جعفر بن أبي طالب في أرض الحبشة بحضور النّجاشي ملك الحبشة ، لعمرو بن العاص سفير مشركي قريش إلى النّجاشي ، في الدفاع عن الإسلام ، وشرح مبادئه ، والذبّ عن المسلمين ، ما يمكن اعتباره من الأمثلة الرائعة على الفصاحة ، ولكن طول المناقشة يحول دون اعادة ذكرها في مثل هذا المكان .

ومن الأمثلة على فصاحة سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، ماكتبه عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يصف له البحر : « إني رأيت خَلْقاً كبيراً يركبه خَلْقٌ صغير ، إنْ رَكنَ (٢٢) خَرّق القلوب ، وإن تحرّك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قِلّة ، والشكّ كثرة ، هم فيه كدود على عُوْد ، إن مالَ غَرِق ، وإنْ نجا بَرِق » (٢٣) وكان يقول : « لاسلطان

(٢٢) ركن : سكن .

(٢٣) البرق : الحيرة والدهش ، انظر الطبري (٤/٢٥٨ ـ ٢٥٩) وابن الأثير (٣/٩٥) ، وانظر العقد الفريد (١/٨٩) وعيون الأخبار (١/١٣٧) .

إلاّ بالرجال ، ولا رجال إلاّ بمال ، ولامال إلاّ بعمارة ، ولاعمارة ، إلابعَدْل » (٢٤) .

وقال معاوية بن أبي سُفيان لعمرو بن العاص : « مَنْ أبلغ النّاس ؟ : ، فقال : « مَنْ كان رأيه ردّاً لهواه » ، فقال : « مَنْ أسخى الناس ؟ » ، فقال : « مَنْ بذل دنياه في صلاح دينه » ، فقال : « مَنْ أشجع الناس ؟ » ، قال : « مَنْ ردّ جهله بحلمه » ، ومَنْ غرر أقوال عمرو : « موت ألف من العِلْيَةَ ، أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السَّفَلة » . وقال : « إذا أنا أفشيت سِرّي إلى صديقي فأذاعه ، فهو في حلٍ » ، فقيل : وكيف ذلك ؟ ! فقال : « أنا كنت أحق بصيانته » (٢٥) .

وكان يقول : « ما استودعت رجلاً سِرّاً فأفشاه ، فَلُمْتهُ ، لأني كنت أضيقَ صدراً منه حين استودعته إياه حتى أفشاه » (٢٦) .

وقال عمرو حين تحكّم الحكمان في الفتنة الكبري : أبو موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص : « أكثروا الطّعام فوالله مابَطُنَ (٢٧) قوم قطّ إلاّ فقدوا بعض عقولهم ، وما مضت عزيمة رجلٍ بات بطيناً » (٢٨) .

وكان جَرير بن عبد اللهَ البَجَلِيّ شاعِراً خطيباً لَسِناً ، وقد قدم على عمر بن الخطّاب رضى الله عنه من عند سَعْد بن أبي وقاص رضى الله عنه ، وكان سعد يومئذ على العراق ، فقال له عمر : « كيف تركتَه

---

(٢٤) العقد الفريد (١/٣٣) .

(٢٥) زعماء الاسلام ــ د. حسن ابراهيم حسن (١٣٦) ، وانظر ماجاء في فصل: (من كلامه) من كتاب : ابن العاص ــ الاستاذ عباس محمود العقاد . والعلية : جمع العلي ، ويقال : هم علية القوم ، أي وجوه الناس .

(٢٦) عيون الأخبار (١/٤٠) والعقد الفريد (١/٦٥) .

(٢٧) البطنة : امتلاء البطن من الطعام ، ومن امثالهم : «البطنة تذهب الفطنة».

(٢٨) عيون الأخبار (٣/٢١٩) .

سَعْداً في ولايته ؟ » ، فقال : « تركته أكرم النّاس مقدرةً ، وأحسنهم معذرة ، هو كالأُمّ البَرَّة ، يجمع لها كما تجمع الذَرَّة (٢٩) ، مع أنّه ميمون الأثر ، مرزوق الظّفر ، أشدّ الناس عند البأس ، وأحب قريش إلى الناس (٣٠) .

قال عمر : « فأخبرني عن النّاس » ، فقال : « كسِهام الجَعْبَة ،(٣١) منها القائم الرَّائش (٣٢) ، ومنها العَضِلُ (٣٣) الطّائش ، وابن أبي وَقّاص ثِقافها (٣٤) ، يغمز عَضِلها ويقيم ميلها ، والله أعلم بالسّرائر ياعمر » قال : « أخبرني عن إسلامهم » ، قال : « يُقيمون الصّلاة لأوقاتها ، ويؤتون الطّاعة لولاتها » ، فقال عمر : « الحمد لله ، إذا كانت الصّلاة أوتيت الزّكاة ، وإذا كانت الطّاعة كانت الجماعة » . وجرير هو القائل : « الحرس خير من الخَلابة ، والبُكم خير من البذاء » (٣٥) .

وكان مُعاذ بن جَبَل بليغاً فصيحاً ، ومن نماذج أقواله ، إنه كان إذا تهجّد بالليل قال : « اللّهم نامت العيون ، وغارت النّجوم ، وأنت حيّ قَيّوم . اللّهمّ طلبي الجنّة بطيء ، وهروبي من النار ضعيف . اللّهم اجعل لي عندك هدى تردّه اليّ يوم القيامة ، إنّك لاتُخلف الميعاد » (٣٦) . وقال لابنه : « يابُنَيّ ! إذا صلّيت صلاةً فصَلِّ صلاةَ مودّع ، لاتظن أنّك تعود إليها أبداً ، واعلم يابُنَيّ أنّ المؤمن يموت بين حسنتين حسنة

(٢٩) الذر : صغار النمل ، واحدته : ذرة .
(٣٠) الاستيعاب (١/٢٣٩) .
(٣١) الجعبة : وعاء السهام والنبال .
(٣٢) الرائش : ذو الريش ، اشارة الى كماله واستقامته .
(٣٣) العضل من السهام : المعوج .
(٣٤) الثقاف : اداة من خشب أو حديد تثقف بها الرماح لتستوى وتعتدل .
(٣٥) الخلابة : القول ، انظر الاستيعاب (١/٢٣٩) حول ماذكرته من نصوص .
(٣٦) حلية الأولياء (١/٢٣٣) واسد الغابة (٤/٣٧٧) .

قدّمها ، وحسنة أخرّها » . وأتى رجل مُعاذاً ومعه أصحابه يُسلّمون عليه ويودّعونه ، فقال : « إني أُوصيك بأمرين ، إنْ حفظتهما حفُظت : أنّه لاغني بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر ، فآثِر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، حتى تنتظمه لك انتظاما، فتزول به معك اينما زلت » (٣٧) .

ومن أقوال أبي موسى الأشعريّ التي تدلّ على فصاحته قوله : « إنّ هذا القرآن كائن لكم أجرا ، وكائن عليكم وِزْرا ، فاتّبعوا القرآن ولا يتّبعنكم القرآن ، فإنّه مَنْ اتّبع القرآنَ هبط به على رياض الجنّة ، ومَنْ تبعه القرآنُ زُجّ في قفاه فقذفه في النار » (٣٨) .

ووصفوا حديثه الحاسم الجازم في الفصاحة والعلم ، فقالوا : « ماكُنّا نُشَبِّه كلام أبي موسى الا بالجَزّار الذي لايُخطىء المِفْصَل » (٣٩) .

لقد كان العرب على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، يتميزون بالفصاحة ، وكانوا يومئذٍ من قِمم الفصاحة ، وكان سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، في فصاحتهم قِمة القِمم .

٣ – العِلْم

كان النبيّ صلى الله عليه وسلّم هو المعلّم الأوّل لأصحابه ، يعلّمهم القرآن والسنة ويُفَقّههُم في الدين ، ويكاد يعلّمهم أدق تفاصيل حياتهم اليومية من آداب وسلوك ومعاملة وتصرف ، حتى غيّر حياتهم من حال إلى حال بشكل جذريّ إلى الأفضل ، وحتى شمل التغيير الاجتماعي العرب المسلمين ،

---

(٣٧) حلية الأولياء (٢٣٤/١) .
(٣٨) صفوة الصفوة (٢٢٦/١) وانظر حلية الأولياء (٢٥٧/١) .
(٣٩) طبقات ابن سعد (١١١/٤) .

فاندثر المجتمع الجاهـلي بينهم أو كاد، وأصبح مجتمعاً إسلامياً له دينه وخُلُقه ومثله العُليا وشريعته ونظامه وضبطه وانسجامه الفكري .

وكان اهتمـام الإسلام بالعلم عظيماً ، والقرآن الكريم والسُنّة النبويّة شاهدة على ذلك ، وارتفعت نسبة الذين يقرأون ويكتبون في الإسلام عنهم في الجاهلية ارتفاعاً كبيراً ، وحسبنا أن نذكر الآية الكريمة : (قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الَّذينَ يَعْلَمُوْنَ والَّذينَ لا يَعْلَمُوْن ؟ !) (٤٠) ، وكان تَعْداد شهداء القُراء في معركة اليَمَامة بين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد من جهة والمرتدين من بني حَنيفَة بقيـادة مُسَيلمَة الكَذاب وهي التي جرت سنة إحدى عشرة الهجريّة ، ثلاثمائة شهيد في رواية وخمسمائة شهيد في رواية أخرى من القُرّاء (٤١) ، وكان عدد العرب الذين يقرأون ويكتبون في الجاهلية قليلاً في أصقاعٍ ، ونادراً في أصقاع أُخرى .

وقد اختار النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم سفراءه الى الملوك والأمراء في زمانه ، فهم من صفوة الصّحابة في العلم إن لم يكونوا صفوتهم .

وكان جعفر بن أبي طالب في ارض الحبشة، فأرسـلت قريش عمرو ابن العاص إلى النجاشي ملك الحبشة ارد المسلمين المهاجرين من ارض الحبشة إلى مشركي قريش في مكّة . وكلم عمرو النّجاشي في المسلمين المهاجرين ، فأرسل النّجاشي إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : « ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا ديني ولادين أحد من هذه الملل ؟ » ، فأجابه جعفر : « أيها الملك ! كنّا أهل جاهلية ، نعبد الاصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونُسيء الجوار ، ويأكل القوي منّا الضعيف ، فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف

(٤٠) الآية الكريمة من سورة الزمر (٣٩ : ٩) .
(٤١) الطبري (٢/٥١٦) وابن الأثير (٢/١٤٠) .

نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ونخلع ماكنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرّحم ، وحسن الجوار ، والكَف عن المحارم والدِّماء ونهانا عن الفواحش وقول الزّور وأكل مال اليتيم وقَذْف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لانُشرك به شيئا ، وأمرنا بالصّلاة والزكاة والصِّيام — وعدد عليه أمور الإسلام — فصدّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله . فعبدنا الله وحده لانشرك به شيئا ، وحرّمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحلّ ماكنا نستحلّ من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا الى بلادك واخترناك على من سِواك . ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك » فقال النَجاشي :« هل معك مما جاء به من الله شيء ؟» ، فقرأ عليه صدراً من سورة : (كهيعص) (٤٣) ، فبكى النجاشي حتى اخْضَلّت لحيته (٤٤) ، وبكت أساقفتُه حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم (٤٥) .

ثم قال النَّجاشي : « إنّ هذا والذي جاء به عيسى ، ليخرج من مِشْكَاةٍ (٤٦) واحدة ، فلا والله لاأسلمهم إليكما ولايُكادون » .

---

(٤٢) هي سورة مريم ، سورة مكية ، الا آيتي (٥٨ و ٧١) فمدينتان ، وآياتها (٩٨) آية ، نزلت بعد سورة فاطر ، ورقم السورة (١٩) .

(٤٣) اخضلت : ابتلت . وفي بعض النسخ : أخضل لحيته ، كما هو كذلك في النهاية لابن الأثير ، فأخضل على مثل هذا مثل أكرم ، معناها : بلها ولحيته على هذا مفعول ، مثل قوله : أخضلوا مصاحفهم . تقول : أخضل المطر الأرض : اذا بلها .

(٤٤) الأساقفة : جمع اسقف ، وهو العالم في النصرانية .

(٤٥) سيرة ابن هشام (١/٣٥٨ — ٣٥٩) .

(٤٦) المشكاة : الثقب الذي يوضع فيه الفتيل والمصباح ، وهي الكوة غير النافذة.

ولما خرج سفيرا قريش من النّجاشي ، قال عمرو بن العاص : « والله لآتينّه غداً عنهم ، أستأصل خضراءهم » (٤٧) ؟

وغدا عمرو إلى النّجاشيّ من الغـد، فقال : « أيُّها الملك ! إنّهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيما ، فأرْسِلْ إليهـم فَسَلْهم عَمّا يقولون فيه ! » .

وأرسل النّجاشي إلى المسلمين المهاجرين ليسألهم عن عيسى ، فلما دخلوا عليه قال لهم : « ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟ » ، فقال جعفر : « نقول فيه الذي جاءنا به نبيُّنا صلى الله عليه وسلّم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتُول » ، فضرب النّجاشي بيده إلى الأرض ، فأخذ عُوْداً منها ثمّ قال : « والله ماعدا عيسى بن مريم ماقلتَ هذا (٤٨) العود . اذهبوا فأنتم الآمنون ، مَنْ سبّكم غَرِم ، م ، ماأحب أنّ لي جبلاً من ذهب ، وأني آذيتُ رجلاً منكم . . . . » (٤٩) .

وكان عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِي . من رواة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فقد روى عشرين حديثاً (٥٠) ، كما أنّ حديث دِحْيَة ابن خليفة الكَلْبِيّ في الصّحيحين (٥١) : البخاري ومُسْلِم .

وكان عمرو بن العاص عالماً من علماء الدِّين ، قدّمه في العلم ، على الرّغم من تأخرّ إسلامه ، ذكاؤه الخارق وحرصه الشّديد على التّعليم من

---

(٤٧) أستأصل خضراءهم : يعني جماعتهم ومعظمهم .

(٤٨) قال أبو ذر : « تقديره ما جاوز مقدار هذا العود ، أو قدر هذا العود » اهـ .

(٤٩) سيرة ابن هشام (١/٣٦٠ ـ ٣٦١) وحلية الأولياء (١/١١٤ ـ ١١٦) ، وانظر عيون الأثر (١/١٨ ـ ١١٩) .

(٥٠) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٤) وأسماء الصحابة الرواة ملحق بجوامع السيرة لابن حزم (٢٨٣) وخلاصة تذهيب الكمال (٢٨٧) .

(٥١) تهذيب الاسماء واللغات (١/١٨٥) .

النبيّ صلى الله عليه وسلّم وأصحابه العلماء ، وإتقانه القراءة والكتابة ، وكان إتقانهما في أيّامه نادراً في أُمّةٍ تَفَشَّت فيها الأُمِيَّة ، وكان عمرو وأحد كتّاب النبيّ صلى الله عليه وسلم (٥٢) .

وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم تسعة وثلاثين حديثاً (٥٢أ) في رواية، وسبعة وثلاثين حديثاً في رواية أخرى (٥٣) ، اتّفق البخاري ومسلم على ثلاثة أحاديث ، ولمسلم حديثان وللبخاري بعض حديث (٥٣أ) .

وكان متفقها في الدِّين ، مجتهداً في الدِّين : اجتهد على عهد النبي صلى الله عليه وسلّم ، واجتهد بعد التحاقه بالرفيق الأعلى .

ومن اجتهاده على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم مارواه الإمام أحمد ابن حَنْبَل في مُسنده ، قال عمرو : « احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقتُ إن اغتسلتُ أن أهلك ، فَتَيَمَّمْتُ ثم صلّيت بأصحابي صلاة الصُّبح ، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وذكرتُ ذلك له فقال : ياعمرو ! صلّيتَ بأصحابك وأنت جُنُب ؟ ! فقلت : نعم يارسول الله إني احتلمتُ في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلتُ أن أهلك ، وذكرتُ قول الله عزّ وجلّ : (ولاتَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كانَ بِكُمْ رَحِيمًا) (٥٤) ، فتيمّمتُ ثم صلّيْتُ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلّم ولم يقل شيئا » (٥٥) ، وكان ذلك في سرية ذات

---

(٥٢) العقد الفريد (١٦٨/٤) .
(٥٢أ) اسماء الصحابة الرواة ـ ملحق بجوامع السيرة (٢٨٠) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٩٠) .
(٥٣) تهذيب الاسماء واللغات (٣١/٢) .
(٥٣أ) تهذيب الاسماء واللغات (٣١/٢) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٩٠) .
(٥٤) الآية الكريمة من سورة النساء (٤ : ٢٩) .
(٥٥) انظر : مغازى الواقدي (٧٦٩/٢ ـ ٧٧٤) وطبقات ابن سعد (١٣١/٢) . وانظر حديث صلاة عمرو في مسند الامام احمد بن حنبل .

السَّلاسل التي كان من جملة جنودها أبو بكر الصدّيق وعمربن الخطاب وابو عُبَيْدَة الجراح رضى الله عنهم (٥٦) .

وكان عمرو يقول عقلتُ عن رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم ألف مَثَل » (٥٧) .

أما اجتهاده بعد التحاق النبيّ صلى الله عليه وسلّم بالرّفيق الأعلى ، ففي سنة ثماني عشرة الهجرية ، كان طاعون عَمَواس (٥٨) فلما اشتعل قام أبو عُبَيْدَة بن الجرّاح في الناس خطيباً ، فقال : « أيّها الناس ! إنّ هذا الوَجَع رحمة بكم ودعوة نبيّكم محمد صلىّ الله عليه وسلّم ، وموت الصّالحين قبلكم ، وإنّ أبا عُبَيْدَة يسأل الله أن يقسم له منه خطّة » ، فطُعِنَ ، فمات واستُخلف على الناس مُعَاذ بن جبل ، فقام خطيباً ، فقال مثل ما قال أبو عُبَيْدَة من قبله ، فطُعن ابنه عبد الرحمن بن مُعاذ ، فمات ثم قام معاذ فدعا به لنفسه ، فطُعِنَ في راحته ، فكان ينظر إليها ثم يُقبِّل ظهر كفّه ، ثمّ يقول : « ماأحبّ أنّ لي بما فيك شيئاً من الدنيا » . فلما مات معاذ استُخلف على الناس عمرو بن العاص ، فقام خطيباً في الناس ، فقال : « أيها الناس ! إنّ هذا الوَجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار ، فَتَجَبَّلُوا (٥٩) منه في الجبال » ، فقال أبو وائلة الهُذَلي (٦٠) « كذبتَ ! والله لقد صحبتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت شرّ من حماري

---

(٥٦) سيرة ابن هشام (٢٩٨/٤) والطبري (٣٢/٣ ـ ٣٣) والمحبر (١٢١) وانساب الأشراف (٣٨٠/١ ـ ٣٨١) .

(٥٧) مسند الامام احمد بن حنبل (٢٠٣/٤) .

(٥٨) عمواس : هي كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس ، وهي على اربعة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٥/٦) .

(٥٩) تجبل القوم : دخلوا في الجبل .

(٦٠) أبو وائلة الهذلي : انظر سيرته في : الاصابة (٢١١/٧ ـ ٢١٢) .

هذا (٦١) فقال عمرو : « والله ماأردّ عليك ما تقول ! وايم الله لا نُقيم عليه » ، ثمّ خرج وخرج الناس ، فتفرّقوا ، ورفعه الله عنهم ، فبلغ ذلك عمر بن الخطّاب من رأي عمرو بن العاص فماكرهَهُ . (٦٢)

وقد قال عمرو يروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم أنّه قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم واجتهد ثمّ أخطأ فله أجر » (٦٣) .

وعن عمرو بن العاص ، قال : « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم خصمان يختصمان ، فقال لعمرو : اقْضِ بينهما ياعمرو . فقال : أنت أولى بذلك مني يارسول الله ! قال : وإنْ كان . قال فآذا قضيتُ بينهما ، فمالي ؟ قال ؟ : إنْ أنت قضيتَ بينهما فأصبتَ القضاء ، فلك عشر حسنات ، وإن أنت اجتهدتَ فأخطأت ، فلك حسنة » (٦٤) ، وتكليفه بالقضاء من النبيّ صلى الله عليه وسلّم وبحضرته ، دليل على متانته في الفقه وذكائه وحصافته .

وكان عمرو من أصحاب الفُتيا من الصَّحابة (٦٥) ، وكفى بذلك دليلاً على مبلغ علمه في الدِّين .

وقد وصفه رجل فقال : « صحبتُ عمرو بن العاص ، فما رأيتُ أبْيَنَ قرآناً ولا أكرم خُلقا ، ولاأشبه سريرة بعلانية منه (٦٦) .

---

(٦١) يريد انه كان كافرا ولم يسلم .
(٦٢) الطبري (٤/٦١ ـ ٦٢) .
(٦٣) مسند الامام احمد بن حنبل (٤/٢٠٤) .
(٦٤) مسند الامام احمد بن حنبل (٤/٢٠٥) .
(٦٥) اصحاب الفتيا من الصحابة ـ ملحق بجوامع السيرة لابن حزم (٣٢٠) .
(٦٦) الاصابة (٥/٢) .

وكان العلاء بن الحَضْرَمِيّ من القلائل الذين يُحسنون القراءة والكتابة ، فأصبح أحد كُتّاب النبيّ صلى الله عليه وسلّم (٦٧) ، كما ساعده ذلك على تعلّم القرآن والسنّة والتفقّه في الدّين .

وكان جرير بن عبد الله البَجَلِيّ محدّثاً عالماً بأمور دينه فقيها ، روى مائة حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم (٦٨) ، اتفق البخاري ومُسْلم على ثمانية ، وانفرد البخاري بحديث ومسلم بستة أحاديث (٦٩) .

وكان مُعَاذ بن جَبَل ممّن يُفْتي في المدينة ويُقْتَدى به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم وبعد ذلك (٧٠) ، وكان يُصَلّي مع النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، ثم يجيء فيؤمّ قومه (٧١) بني سَلِمَة من بني الخزرج من الأنصار ومَنْ يصلي معهم في مسجدهم .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : « جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم أربعة كلّهم من الأنصار : أُبيّ بن كَعْب ، ومُعَاذ بن جَبَل ،وزيد بن ثابت ،وأبو زيد » ،رواه البخاري ومُسْلم. (٧٢)

وعن عبد الله بن مَسعود ، وسالم مولى أبي حُذَيْفَة ، ومُعَاذ بن جَبَل ، وأُبَيّ بن كَعْب» ، رواه البخاري ومسلم (٧٣) .

---

(٦٧) ابن الأثير (٢/٣١٣) والسيرة الحلبية (٢/٣٦٤) .
(٦٨) أسماء الصحابة الرواة ـ ملحق بجوامع السيرة (٢٧٨) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٦١) .
(٦٩) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٦١) .
(٧٠) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٢/٣٣٤ ـ ٣٥٠) .
(٧١) طبقات ابن سعد (٣/٣٨٦) والاستبصار (١٣٧) .
(٧٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٩٩) والاصابة (٦/١٠٦) .
(٧٣) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (١/٦٠) ، وانظر تهذيب الاسماء واللغات (٢/٩٩) وأسد الغابة (٤/٣٧٨) وانساب الاشراف (١/٢٦٤) .

روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم مائة حديث وسبعة وخمسين حديثاً ، اتّفق البخاري ومُسلم على حديثين ، وانفرد البخاري بثلاثة ومسلم بحديث » . (٧٤)

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أرحم أمّتي لأُمّتي أبو بكر، وأشدّهم في أمر الله عمر، وأشدهم حياءً عثمان ، وأعلمهم بالحلال والحرام مُعَاذ بن جَبَل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرأهم أُبَيّ ، ولكل أمّة أمين ، وأمين هذه الأُمّة أبو عُبَيْدَة بن الجرّاح » (٧٥) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « أعلم أُمّتي بالحلال والحرام ، مُعَاذ بن جَبَل » (٧٦) ، وقال « مُعَاذ بن جَبَل أعلم النّاس بحلال الله وحرامه » (٧٧) .

وقال عليه الصّلاة والسّلام : « يأتي مُعَاذ بن جَبَل يوم القيامة أَمَامَ العلماء بِرَتْوَة (٧٨) ، والرّتوة : رمية سهم ، وقيل : مِيْل : وقيل : مَدَ البصر (٧٩) .

---

(٧٤) تهذيب الاسماء واللغات (٢/٩٨) ، وانظر تهذيب التهذيب (١٠/١٨٦ـ١٨٧) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٤٧٩) .

(٧٥) رواة الترمذي والنسائي وابن ماجة بأسانيد صحيحة حسنة ، وقال الترمذي : «حديث حسن صحيح» ، انظر تهذيب الاسماء واللغات (٢/٩٩) .

(٧٦) طبقات ابن سعد (٢/٣٤٧) و (٣/٨٥٦) والاستبصار (٤٨) و (١٣٦) وتهذيب التهذيب (١٠/١٨٧) والبداية والنهاية (٧/٩٥) وحلية الأولياء (١/٢٢٨) .

(٧٧) حلية الأولياء (١/٢٢٨) .

(٧٨) طبقات ابن سعد (٢/٣٤٧) واسد الغابة (٤/٣٧٨) وتهذيب الاسماء واللغات (٢/٩٩) والاستبصار (١٣٦) وتهذيب التهذيب (١٠/١٨٧) وحلية الأولياء (١/٢٢٩) .

(٧٩) انظر هامش اسد الغابة (٤/٣٧٨) نقلا عن النهاية لابن الأثير .

وقال عليه الصّلاة والسّلام : « معاذ بن جبل ، له نَبْذَة بين يدي العلماء يوم القيامة »(٨٠) .

وخطب عمر بن الخطّاب رضى الله عنه في الجَابِيَة (٨١) فقال : « مَنْ كان يريد أن يسأل عن الفِقه ، فَلْيَأْتِ معاذ بن جبل » . وكان عمر بن الخطّاب يقول حين خرج معاذ إلى الشام : « لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يُفتيهم به ، ولقد كنتُ كلَّمتُ أبا بكر رحمه الله ان يحبسه لحاجة النّاس إليه ، فأَبَىَ عَلَيَّ وقال : رجل أراد وجهاً يريد الشَّهادة ، فلا أحبسه ! فقلت : والله إنَّ الرَّجل لَيُرْزق الشَّهادة وهو على فراشه وفي بيته عظيم الغِنىَ عن مِصْرِه » . وقال كَعْب بن مالك : « كان مُعَاذ بن جَبَل يُفتي بالمدينة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأبي بكر » . وقال عمر بن الخطّاب : « إنَ العلماء إذا حضروا يوم القيامة ، كان معاذ بن جبل بين أيديهم قذفة بحجر » (٨٢) .

وذكر أبو إدريس الخَوْلانِيّ ، أنهّ دخل مسجد دِمشق ، فإذا فتىً برَّاق الثّنايا ، وإذا ناس معه إذا اختلفوا في شيءٍ أسندوه إليه وصدروا عن رأيه ، فسألتُ عنه ، فقالوا : هذا مُعَاذ بن جَبَل » (٨٣) .

وذكروا أَنَّ رجلاً دخل مسجد حِمْص ، فاذا بِحَلْقَةٍ فيهم رجل آدَم (٨٤) جميل وضّاح الثّنايا ، وفي القوم مَنْ هو أسَنُّ منه ، وهم

---

(٨٠) طبقات ابن سعد (٣٤٧/٢) .

(٨١) الجابية : قرية من أعمال دمشق ، من ناحية الجولان ، قرب مرج الصفر ، في شمالي حوران ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٣/٣) .

(٨٢) طبقات ابن سعد (٣٤٨/٢) .

(٨٣) طبقات ابن سعد (٥٨٦/٣ ـ ٥٨٧) .

(٨٤) آدم : شديد السمرة .

مقبلون عليه يستمعون حديثه ، فقال له الرّجل : « مَنْ أنت ؟ » ، فقال : « مُعَاذ بن جَبَل » (٨٥) .

وذكر أبو مسلم الخَوْلانيّ قال «دخلت مُسجد حِمْص، فاذا فيه نحو من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، وإذا فيهم شاب كحل العينين ، براق الثّنايا ، لايتكلم ، فاذا امترى القوم شيءٍ ، أقبلوا عليه يسألونه ، فقلت لجليسٍ لي : مَنْ هذا ؟ فقال : معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه ، فوقع في نفسي حبّه ، فكنت معهم حتى تفرقوا » .

وقال عائذ الله بن عبد الله (٨٦) : « دخلت المسجد يوماً مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم في أول إمرة عمر بن الخطّاب ، فجلست مجلساً فيه بضع وثلاثون كلّهم يذكرون حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وفي الحَلْقَة فتىً شاب شديد الأَدَمَة حلو المنطق وضيء وهو أشبّ القوم سِنّاً ، فاذا اشتبه عليهم من أحاديث القوم شيء ، ردّوه إليه فحدّثهم ، ، لايُحدّثهم شيأً إلاّ أن يسألوه ، قلت : مَنْ أنت ياعبد الله؟ فقال : : معاذ بن جبل » .

وروى أيضاً : أنه دخل مسجد حِمْص ، فاذا أنا بفتىً حوله النّاس ، جَعْدٌ (٨٧) ، قَطَط (٨٨) ، فاذا تكلّم كأنّما يخـــرج من فِيْهِ نور ولؤلؤ ، فقلت : مَنْ هذا ؟ فقالوا : مُعَاذ بن جبل رضى الله عنه » .

وقال شَهْربن حَوْشَب : « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم إذا تحدّثوا وفيهم مُعَاذ بن جَبَل ، نظروا إليه هيبةً له » (٨٩) .

---

(٨٥) طبقات ابن سعد (٥٨٧/٣) .
(٨٦) عائذ الله بن عبدالله : هو أبو ادريس الخولاني ، انظر ترجمته في تاريخ دمشق لابن عساكر ـ تحقيق د. شكري فيصل (٤٨٥ ـ ٤٩٧) .
(٨٧) جعد : يقال وجه جعد ، مستدير قليل اللحم .
(٨٨) قطط : يقال شعر قطط ، قصير جعد .
(٨٩) انظر التفاصيل في حلية الأولياء (٢٣٠/١ ـ ٢٣١) .

وكان شِعار مُعَاذ في تعلّم العلم وتعليمه ، كما كان يوصي به مَنْ حوله من العلماء والمتعلمين وسائر النّاس : « خُذِ العِلْمَ أَنَّى أَتاك » (٩٠) .

وقال رجل لمُعاذ : « علّمني » ، قال : « وهل أنت مطيعي ؟ ! » ، قال : « إني على طاعتك لحريص » ، قال : « صُمْ وافطر ، وصَلِّ ونَمْ ، واكسب ولاتأثم ، ولاتموتَنَّ إلاّ وأنت مُسْلم ،وإياك ودعوة المظلوم» (٩١).

وكان يحث على أخذ العلم من منابعه الأصيلة ، ومن العلماء والثّقات، وينهى عن الانحراف والبِدَع ، ومن أقواله في ذلك : « إنّ وراءكم فتناً يكثر فيه المـال ، ويفتح فيها القـرآن ، يأخـذه والمنافق ، والرّجل والمرأة ، والصغير والكبير ، والحرّ والعبد . فيوشك قائل أن يقول : مالناس لايتبعوني » وقد قرأت القرآن ! ماهم بمتّبِعِيّ حتى ابتدع لهم غيره ! فاياكم وما يُبْتَدع ، فانّ مابتدع ضلالة ، وأحذّركم زيغـة الحكيم ، فانّ الشيطان قد يقول كلمة الضّلالة على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمـة الحق » ، فقيل له : « ما يدريني رحمك الله : أنّ الحكيم يقول كلمـة الضّلالة ، وأنّ المنافق يقول كلمـة الحق ؟ ! » ، قال : « بـلى ، اجْتَنِبْ من كلام الحكيم المستهترات التي يقال : ماهذه ؟ ! ولايثنيك ذلك عنه ، فانّه لعله يرجع ويتّبع الحقّ إذا سمعه ، فانّ على الحق نورا »(٩٢)، فهو يريد من العلماء والمتعلمين أن يستعملوا عقولهم في تلقي العلم ، وألاّ يُقاطعوا العالم إذا أخطأ مرّة ، بل عليهم أن يعينوه على العودة إلى الصّواب فلا يخسره العلم ، ولايخسره العلماء والمتعلّمون .

---

(٩٠) طبقات ابن سعد (٢/٣٥٠) .
(٩١) حلية الأولياء (١/٢٣٣) .
(٩٢) حلية الأولياء (١/٢٣٢ ـ ٢٣٣) ، وورد قول معاذ في روايتين : الأولى رواها أبو ادريس الخولاني ، والثانية رواها أبو يزيد الخولاني عن يزيد بن عميرة ، والروايتان متقاربتان في المعنى ، مختلفتان قليلا فيها .

وجاء أحد طلاّب معاذ إليه ، فجعل يبكي ، فقال : « مايُبكيك ؟ ! » ، قال : « والله ما ابكي لقرابة بيني وبينك ، ولا لدنيـــا كنت اصيبها منك ، ولكن كنت اصيب منك علماً ، فأخاف أن يكون قد انقطع » ، فقال معاذ: فلا تَبْكِ ، فأنّه مَنْ يُرِد العلم والإيمان ، يـــؤته الله كما أتى إبراهيم عليه السلام ، ولم يكن يومئذٍ علم ولاإيمان »(٩٣) ، هذا دليل على شدّة تعلقّ طلاّبه به وحبّهم له ، ودليل على إسداء النّصح والتوجيه لهم بمـــا يفيدهم في حياتهم العلمية والعمليّة أيضاً . .

وقال معاذ : « تعلموا العلم ، فانّ تعلّمه لله تعالى خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لايعلم صدقة ، وبذله لأهله قُرْبَة ، لأنّه معالم الحلال والحرام ، ومنار أهل الجنّة ، والأُنس في الوحشة ، والصّاحب في الغربة ، والمحدّث في الخلوة ، والدّليل على السّراء والضرّاء ، والسلاح على الأعداء ، والدين عند الأجلاّء ، يرفع الله به أقواماً ، ويجعلهم في الخير قادة وأئمة ، تُقتبس آثارهم ، ويُقْتدى بفعالهم ، ويُنْتهى إلى رأيهم. ترغب الملائكة في خلّتهم ، وبأجنحتها تمسحهم. يستغفر لهم كل رطب ويابس ، حتى الحيتان في البحر وهوامه ، وسباع الطّير وأنعامه . لأنّ العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصباح الأبصار من الظلم، يُبلغ بالعلم منازل الأخيار ، والدّرجة العليا في الدنيا والآخرة ، والتفكير فيه يعدل بالصّيام ، ومدارسته بالقيام . به تُوصل الأرحام ، ويُعرف الحلال من الحرام ، إمام العمال والعمل تابعه ، يَلْهمَهُ السُّعداءُ ، ويُحْرَمُه الأشقياءُ » (٩٤) .

وعن معاذ رضى الله عنه قال : « تصدّيت لرسول الله صلى الله عليه وسلّم وهو يطوف ، فقلت : يارسول الله ! أرِنَا شرّ الناس . فقال :

(٩٣) حلية الأولياء (١/٢٣٤) .
(٩٤) رواه عن معاذ ، رجاء بن حيوة ، انظر حلية الأولياء (١/٢٣٩) .

سلوا عن الخير ولاتسألوا عن الشر ، شِرار الناس شِرار العلماء في النّاس »(٩٥) ، رواه البزّار عن معاذ (٩٦) .

وقال عمر بن الخطّاب عجزت النساء أن يلدن مثل مُعَاذ ، ولولا مُعَاذ لهلك عمر » (٩٧) ، لأنّه كان لايتأخر عن إسداء النُّصح له والمشورة ، إذا كان في المدينة المنوّرة أو كان خارجها .

لقد كان مُعَاذ أفقه الناس ، أعلم أُمّة النبيّ صلى الله عليه وسلّم بالحلال والحرام (٨٨) .

أما أبو موسى الأَشْعَرِيّ ، فكان يُفْتي بالمدينة المنوّرة ، ويُقْتَدى به ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم على عهد رسول الله صلى الله عليه سلّم ، وبعد ذلك (٩٩) . .

وكان عمر بن الخطّاب رضى الله عنه ، إذا رأى أبا موسى قال : « ذكّرنا ياأبا موسى ! » ، فيقرأ عنده القرآن (١٠٠) . قال عمر لأبي موسى : شوّقنا إلى ربّنا » ، فقرأ القرآن ، فقالوا . « الصّلاة ! » ، فقال عمر : أوَلَسْنا في صلاة ! » (١٠١) .

قال أنس بن مالك : « بعثني الأَشعري إلى عمر — حين كان على البصرة ، فقال : « كيف تركتَ الأشعري ؟ فقلت له : تركته يُعلّم النّاس القرآن .

---

(٩٥) حلية الأولياء (٢٤٢/١) .
(٩٦) حديث حسن ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٦٤/٢) .
(٩٧) الاصابة (١٠٧/٦) .
(٩٨) انظر مسند الامام احمد بن حنبل (١٨٤/٣) و (٢٨١/٣) والحديث الرقم (٢٠٩٦) من مسند الطيالسي ، وانظر مفتاح كنوز السنة (٤٧٥) .
(٩٩) انظر اسماءهم في طبقات ابن سعد (٣٣٤/٢ ـ ٣٥٤) ، وانظر اصحاب الفتيا لابن حزم (٣٢٠) .
(١٠٠) طبقات ابن سعد (١٠٩/٤) .
(١٠١) طبقات ابن سعد (١٠٩/٤) .

فقال : أما إنَّه كَيِّس ، لاتُسْمِعْها إياه » (١٠٢) .

وقال الإمام الشَّعبيّ : « انتهى العلم إلى سِتّة » ، وذكر أبا موسى فيهم

كان دقيقاً غاية الدقّة في تحريّ العلم : في نقله بصدق ، وفي تعليمه بأمانة وهو القائل : « مَنْ علَّمه الله عِلْماً ، فَلْيُعَلِّمْهُ ، ولا يقولنّ ما ليس له به علم ، فيكون من المتكلِّفين ويمرق من الدِّين » (١٠٤) .

وحين ولاه عمر بن الخطّاب البصرة ، قال أبو موسى لأهل البصرة : « إنّ أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم ، أُعلِّمكم كتاب ربكم عزّ وجل وسُنة نبيكم صلى الله عليه وسلّم ، وأُنظِّف لكم طرقكم » (١٠٥) ، وكان أبو موسى هو الذي فقّه أهل البصرة وأقرأهم (١٠٦) القرآن الكريم ، وسكن الكوفة وتفقه به أهلها (١٠٧) .

ولأبي موسى ثلاثمائة وستون حديثاً (١٠٨) ، اتفق البخاري ومسلم على خمسين حديثاً ، ونفرد البخاري بأربعة أحاديث ومسلم بخمسة وعشرين حديثاً (١٠٩) .

وكان أحد قضاة الأمة الأربعة : عمر ، وعَليّ ، وأبو موسى ، وزيد

---

(١٠٢) طبقات ابن سعد (٢/٣٤٥) .
(١٠٣) الاصابة (٤/١٢٠) .
(١٠٤) طبقات ابن سعد (٤/١٠٩) .
(١٠٥) حلية الأولياء (١/٢٥٧) .
(١٠٦) الاصابة (٤/١٢٠) .
(١٠٧) الاصابة (٤/١٢٠) .
(١٠٨) اسماء الصحابة الرواة لابن حزم ـ ملحق بجوامع السيرة (٢٧٦) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣١٠) .
(١٠٩) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣١٠) ، وفي تهذيب الاسماء واللغات (٢/٢٦٩) : ان البخاري انفرد بخمسة عشر ومسلم بخمسة عشر .

ابن ثابت (١١٠) ، ومن أقواله في القضاء : « لاينبغي للقاضي أن يقضيَ حتى يتَبَيَّنَ االيلَ من النَّهار »،فبلغ قوله عمر بن الخطّاب، فقال: « صدق أبو موسى » (١١١) .

وكان أبو موسى من قضاة النبيّ صلى الله عليه وسلّم (١١٢) ، وأبي بكر ، وعمر (١١٣) ، وعثمان (١١٤) ، ولا يتولى القَضاء غير العلماء .

لقد بلغ أبو موسى في القرآن الكريم وعلومه مبلغاً جعله موضع ثقة النبيّ صلى الله عليه وسـلّم به والخلفاء الراشـدين من بعده ، في تولي واجب الداعية المختار والمعلِّم الأول في ركب تعليم القرآن الكريم وعلومه ، حتى أصبحت له مدرسة تُعرف باسمه في البصرة والكوفة بخاصّة والمشرق الإسلامي بعـامة .

وفضل العلم وأهله معروف ، نطق به القرآن الكريم ورفع شأنه ، وأكّدته السُنة النبوية . قال تعالى (وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْما) (١١٥) وقال: (يَرْفَعِ اللهُ الذينَ آمَنُوا منكم والذين أُوْتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ)(١١٦). وفي السُنة النبوية : « مَنْ يُرد الله به خيراً يفقّهه في الدين» (١١٧) .

ولابُدّ أن يتحلىّ العالم بالفهم الدّقيق الذي يقوم على تدبر معاني القرآن والسنة ، حتى يستطيع عرضها على غيره وإقناعه بها وتعليمها له ،

---

(١١٠) الاصابة (١٢٠/٤) والعقد الفريد (٢٣١/٢) .
(١١١) طبقات ابن سعد (٣٤٥/٢) و (١١٣/٤) .
(١١٢) أخبار القضاة (١٠٠/١) .
(١١٣) أخبار القضاة (١٠٢/١) .
(١١٤) أخبار القضاة (٢٨٣/١) .
(١١٥) الآية الكريمة من سورة طه (٢٠ : ١١٤) .
(١١٦) الآية الكريمة من سورة المجادلة (٥٨ : ١١) .
(١١٧) رواه البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل عن معـاوية ، ورواه الترمذي وأحمد بن حنبل عن عبدالله بن عباس ، ورواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٣٢١/٢) .

فما ينبغي أن يكتم العالم علمه ، وإلاّ اقتصرت فائدة العلم على صاحبه ولم ينتشر بين طُلاّبه المتعلّمين .

لقد كان سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم من أبرز علماء الصّحابة ، وكانوا من العلماء العاملين ، المخلصين في عملهم ، لذلك أينعت جهودهم وأثمرت أطيب الثمرات .

٤ ــ حسن الخُلُق

أخلاق السّفير النبويّ ، هي أخلاق الإسلام ، التي بينها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وفصّلها رسول الله صلى الله عليه وسلّم في سُنّته ، وتمسك بها صحابته الكرام في سلوكهم .

والصِّدق من أوّل حسن الخلق ، وفي كتاب الله تعالى آيات كثيرة تتحدث عن الصِّدق وفضيلته ، وتأمر المؤمنين بأن يكونوا مع الصّادقين : (يأأيُّها الذينَ آمَنُوا اتّقُوا الله وكُونُوا مع الصّادِقين) (١١٨) .

والآيات الواردة في الكتاب العزيز ، والأحاديث النبوية التي تأمر بالصدق وتحث عليه ، وتنهى عن الكذب وتُحذّر منه كثيرة جدا ، مما يدلّ على أهمّية الصِّدق في المسلم الحقّ .

والرّحمة من حسن الخُلق ، فلا بدّ أن يكون السفير ذا قلب ينبض بالرّحمة والشّفقة على النّاس وإرادة الخير لهم والنُّصح ، ومن شفقته عليهم دعوتهم الى الإسلام ، فهو يحب لهم ما يحبّ لنفسه ، وأعظم مايحبه لنفسه الإيمان والهدى ، والرّحمة تهوّن على الرحيم ما يلقاه من الجهلاء ، كما أنّ الرّحمة تثمر العفو والصّفح ، والفظاظة تؤدي إلى انفضاض الناس وعدم الاستجابة والتجاوب .

---

(١١٨) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ١١٩) .

ومن حُسن الخلق التَواضع ، فلا خير في التكبرّ وفي المتَكبِّر ، قال تعالى : (سأَصْرِفُ عن آياتي الذينَ يَتَكَبَّرونَ في الأَرضِ بِغَيْرِ الحَقِّ) (١١٩) ، وقال : (وكذلكَ يطْبَعُ الله على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) (١٢٠) ،وقال: (واسْتَفْتَحُوا وخَابَ كُل جَبَّارٍ عَنِيْدٍ)(١٢١) وقال : (انَّ الله لايُحِبُّ المُسْتَكْبِرِيْنَ) (١٢٢) ، وقال : (إنَّ الذينَ يَسْتَكْبِرونَ عن عِبَادَتِيْ سَيَدْخُلُوْنَ جَهَنَّمَ داخِرين) (١٢٣) ، وقال : (تلكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها للذينَ لايُرِيْدونَ عُلُوّاً في الأَرْضِ ولافَسَاداً ، والعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِيْنَ) (١٢٤) .

وهناك عدد كبير من الأحاديث النّبويّة ، تأمر بالتواضع ، وتنهى عن الكِبر (١٢٥) .

وفي التواضع قال تعالى : (واخفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ من المؤمنين) (١٢٥) .

والسفير أحوج من غيره إلى التواضع . فهو يجالس الناس ويدعوهم إلى الحقّ وإلى أخلاق الإسلام ، ثم إنَ من طبيعة النّاس ، أنهم لايَتقبلون قول مَن يتكبر عليهم ، وإن كان مايقوله حقّا وصدقا .

ومخالطة الناس، واجبة على السّفير ،لأنّ من واجباته الدّعوة إلى الإسلام، ومن وســائلها مخالطة النّاس ، فتكون المخالطة واجبــة لأنّ مالا يؤدّى الواجب إلاّ به ، فهو واجب .

---

(١١٩) الآية الكريمة من سورة الاعراف (٧ : ١٤٦) .
(١٢٠) الآية الكريمة من سورة غافر (٤٠ : ٣٥) .
(١٢١) الآية الكريمة من سورة ابراهيم (١٤ : ١٥) .
(١٢٢) الآية الكريمة من سورة النحل (١٦ : ٢٣) .
(١٢٣) الآية الكريمة من سورة غافر (٤٠ : ٦٠) .
(١٢٤) الآية الكريمة من سورة القصص (٢٨ : ٨٣) .
(١٢٥) الآية الكريمة من سورة الشعراء (١٥ : ٨٨) .

والمُثل العُليا الأخلاقية في القرآن الكريم كثيرة جداً ، لاأعرف كتاباً مُنزّلاً ضمّ بين دفّتيه ما ضمّه الذّكر الحكيم ، ويمكن أن يقال : إنّ الإسلام دين الأخلاق والفضيلة ، فقد بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلّم ليُتمّم مكارم الأخلاق ، كما وصفه الله تعالى في القرآن الكريم بقوله : (وإنّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْم) (١٢٦) .

هذه المُثُل العليا : في الوفاء ، والصدق ، والاستقامة ، وصِلة الرّحم ، وحُسن الجوار ، والابتعاد عن الفحشاء والبغي ، والإيثار ، والحدب على الفقير ، والعدل ، وإكرام الضيف .

إنّ المسلم الحقّ ، مطيع لايعصى ، صابر لايتخاذل ، شجاع لايجبُن ، مِقدام لايتردّد ، مُقبُل لايُدبر ، مُنْدَفع لايَفِرّ ، ثابت لايتزعزع ، مجاهد لايتخلّف ، مؤمن بمُثُل عُليا ، مُضحٍ من أجلها بالمال والروح ، يخوض جهاداً عادلاً لإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل . لايخاف الموت ، ولايخشى الفقر ، ولايهاب قوّة في الأرض ، يُسالم ولايستسلم ، لاتُضعف عزيمته الإشاعات والأراجيف ، لايستكين لاستعمار فكري ولاغزوحضاري ، ولا يقنَط أبداً ولا ييأس من رحمة الله . يقظ أشدّ اليقظة ، حذر أعظم الحذر ، يتأهب لعدوّه ويُعدّ العُدّة للقائه ، ولايستهين به في السِّلم ولافي الحرب (١٢٧) .

تلك هي بعض معالم حُسن الخلق الذي كان عليه الصّحابة ، وكان سفراء النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم من هؤلاء الاصحاب المتميّزين بالخلق الكريم ، أو كانوا من صَفْوة أولئك الأصحاب المتميّزين بالخُلق الكريم .

والذين يمتعّنون في مناقشة جعفر بن أبي طالب أمير المؤمنين المهاجرين

---

(١٢٦) الآية الكريمة من سورة القلم (٦٨ : ٤) .
(١٢٧) ارادة القتال في الجهاد الاسلامي (٣٣) ــ ط ٢ .

إلى أرض الحبشة ، الحبشة ، لعمرو بن العاص سفير مشركي قريش إلى النّجاشي لردّ المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة من مستقرهم الجديد في أرض الحبشة إلى بلدهم الذي هاجروا منه فراراً من ظلم المشركين وخوفاً على دينهم من الفتنة ، إلى مكّة التي كانت مقرّ مقاومة المشركين للمسلمين ، يجد أنّ تلك المناقشة بالإضافة إلى دلالتها على فصاحة جعفر وإيمانه العميق وانتمائه العظيم للإسلام وتفقّهه الكامل بالدين الحنيف ، فهي تدلّ كذلك على متانة أخلاقه ، فقد كان صادقاً غاية الصّدق في مناقشته ، فلم يخش غير الله في عرض أفكاره ، دون أن يحسب حساب تناقضها مع دين النّجاشي المحاط بأحباره المتعصبين ، كما كان يتدفّق رحمةً للمسلمين المهاجرين ، خوفاً على مصيرهم المجهول ؛ فقد كانت كلمة واحدة من النّجاشي تؤدي إلى ترحيلهم من أرض الحبشة إلى مكّة ، حيث القتل والتعذيب والأذى والفتنة ،. كما أثّر تواضعه الجَم للمهاجرين المسلمين وللأحباش الذين أسلموا والذين لم يُسلموا ، ومخالطته المستمرة لمن حوله من الناس في أرض المهجر وتواضع المسلمين ومخالطتهم وحسن أخلاقهم وتواصلهم وتحابّهم أثرت في النّجاشي وفي كثير من بني قومه الأحباش ، فاعتنقوا الإسلام ، وأصبحوا مسلمين ، كما هو معروف .

وكان دِحْيَة بن خَليفَة الكَلبيّ من كِبَار الصّحابة (١٢٨) ، قدّمه إلى مركزه المتميز جهاده وخلقه الكريم وتديّنه (١٢٩) .

ومن أقوال عمرو بن العاص التي تدلُ على تواضعه : « ثلاثة لأَمَلُهم : جليسي مَا فِهِمَ عنيَ ، ودابّتي ما حملت رَحْلي ، وثوبي ماسترني » ، وزاد آخر : « وامرأتي ماأحسنت عِشْرَتي » (١٣٠) .

---

(١٢٨) الاستيعاب (٤٦١/٢/٢) .
(١٢٩) انظر سيرته المفصلة في : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .
(١٣٠) عيون الأخبار (٤٠/١) والعقد الفريد (٦٥/١) .

وقال عنه جابر بن عبد الله : « . . . صحبت عَمرو بن العاص ، فما رأيت رجلاً أنصع ظرفاً منه ، ولا أكرم جليساً ، ولا أشبه سريرة بعلانية منه » (١٣١) .

ورُئي عمرو وهو على بغلة هَرِمة . وهو إذ ذاك أمير مصر ، فقيل له: أتركب هذه وأنت أمير مصر ؟ ! فقال : « لاملل عندي لدابّتي ماحملتني ولالامرأتي ما أحسنت عشرتي ، ولالصديقي ما حَفِظ سِري . . . إنّ الملل من كواذب الأخلاق » (١٣٢) .

وكان عمرو حليماً ، ذُكر أنّه جُعل لرجل ألف درهم ، على أن يسأل عمرو بن العاص عن أُمّه وهو على المنبر ، فسأله الرّجل ، فقال : « أُمي سَلْمَى بنت حَرْمَلة ، تُلقّب : النّابغة ، من بني عَنَزَة ، أصابتها رماح العرب ، فبيعت بعُكاظ ، فاشتراها الفاكه بن المُغِيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جُدْعَان ، ثمّ صارت إلى العاص بن وائل ، فولدت له ، فأنجبت ، فان جُعِل لك شيء ، فخذه » (١٣٣) .

وقال رجل لعمرو : « والله لأتفرغَنّ لك ! » ، فقال : « هناك وقعَت في الشُّغل » ، قال « كأنك تُهَدِّدني . والله لئن قلت لي كلمةً ، لأقولنّ لك عشرا » قال : « وأنت والله لئن قلتَ لي عَشْراً ، لم أقل لك واحدة » (١٣٤).

وكان متواضعاً ، يعترف بالفضل لأهله ويُقرّبه ، فقد دخل مكّة المكرّمة ، فرأى قوماً من قريش قد تحلّقوا حَلْقَةً ، فلما رأوه رموا بأبصارهم إليه ، فعدل إليهم وقال : « أحْسَبُكُم كنتم في شيء من ذكري» ،

---

(١٣١) النجوم الزاهرة (٦٤/١) ، وتستعمل النصاعة في الظرف ، والمراد ظهوره .
(١٣٢) النجوم الزاهرة (٧/١) .
(١٣٣) أسد الغابة (١١٥/٤ ـ ١١٦) .
(١٣٤) العقد الفريد (٢٧٥/٢) .

قالوا : « أَجَلْ كُنَّا نماثل بينك وبين أخيك هشام (١٣٥) ، أيّكما أفضل ! » ، فقال عمرو : « إنّ لهشام عليّ أربعة : أُمّه ابنة هشام بن المُغِيْرَة ، وأُمي مَنْ قد عرفتم ، وكان أحبّ الناس إلى أبيه مني ، وقد عرفتم معرفة الوالد بالولد . وأسلم قَبْلي ، واستُشْهِد وبقيت » (١٣٦) .

وقيل لعمرو : « أنت خير ، أم أخوك هشام بن العاص ؟ » ، قال : « أُخبركم عني وعنه ، عرضنا أنفسنا على الله ، فَقَبِلَهُ وتركني » (١٣٧) ، وقد استُشهد هشام في معركة أَجْنَادِيْن (١٣٨) .

وقد ذكرت المصادر المعتمدة ، أنّ العلاء بن الحضرَمِيّ ، كان مستجابَ الدّعوة (١٣٩) ، كدليل على تقواه وورعه وتمسّكه بالخلق القويم .

أما الحارث بن عُمَيْر الأزديّ ، فقد دفع حياته ثمناً لصدقه المطلق الذي لو خيرٌ بين الصدق أو الموت لاختار الموت على أن يتخلى عن الصِّدق ولو لحظة من حياته . فقد عرض له شرحبيل بن عمرو الغَسّاني في طريقه إلى بُصْرَى من بلاد الشّام ، فقال له : « أين تريد ؟ » ، قال : الشّام ، قال : « لعلّك من رُسُل محمد ؟ » ، قال « نعم ، أنا رسول رسول الله » ، فأمر به ، فأُوثِقَ رِباطاً ، ثم قدّمه فضرب عنقه صبرا (١٤٠) . فهو شهيد الصِّدق الذي هو تاج حُسن الخلق وقوامه وروحه .

---

(١٣٥) هشام بن العاص : انظر سيرته في طبقات ابن سعد (١٩١/٤) واسد الغابة (٩٣/٥) والاصابة (٢٨٦/٦) ، والاستيعاب (١٥٣٩/٤) .
(١٣٦) العقد الفريد (٢٨٩/٢) .
(١٣٧) طبقات ابن سعد (١٩٢/٤) .
(١٣٨) طبقات ابن سعد (١٩٣/٤) .
(١٣٩) الاستيعاب (١٠٨٧/٢) والمعارف (٢٨٤) وتهذيب الاسماء واللغات (٣٤٢/١) .
(١٤٠) انظر التفاصيل في : مغازى الواقدي (٧٥٥/٢ ـ ٧٥٦) واسد الغابة (٣٤٢/١) والاصابة (٢٩٩/١) والاستيعاب (٢٩٨/١) .

أما جرير بن عبدالله البَجَلِيّ ، فقد كان آلفاً مألوفاً ، أحبّه النبيّ صلى الله عليه وسلّم لحسن خُلقه ، قال جريرَ : « ماحجبني رسول الله صلى الله عليه وسلّم منذ أسلمتُ ، ولا رآني إلاّ تَبَسَّم »، رواه الشيخان وغيرهما (١٤١) .

ولمّا جالسه النّبي صلى الله عليه وسلّم ، بسط له رداءه ، وقال : « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه » (١٤٢) .

وقد وجد عمر بن الخطّاب رضى الله عنه في مجلسه رائحة من بعض جلسائه ، فقال عمر : « عزمت على صاحب هذه الرائحة إلاّ قام فتوضّأ » ، فقال جرير : « علينا كلّنا ياأمير المؤمنين فاعزم » ، فقال عمر : « عليكم كلكم عزمتُ » ، ثمّ التفت إلى جرير وقال له : « مازلتَ سيِّداً في الجاهليّة والاسلام » (١٤٣) .

وكان عَليّ بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : « جرير مِنّا أهل البيت » (١٤٤) .

ومناقب جرير الدّالة على حسن خُلقه كثيرة ، ومن مُسْتَطْرَفَاتِها أنّه اشترى له وكيله فرساً بثلاثمائة درهم . فرآها جرير فَتَخَيَّل أنّها تساوى أربعمائة ، فقال لصاحبها : « أتبيعها بأربعمائة ؟ » ، قال : « نعم » ، ثمّ تَخَيَّلَ أنّها تساوى خمسمائة ، فقال : « أتبيعها بخمسمائة ؟ » ، قال : « نعم » ، ثمّ تخيّل أنّها تساوى ستمائة ، ثمّ سبعمائة ، ثمّ ثمانمائة ، فاشتراها بثمانمائة (١٤٥) .

---

(١٤١) تهذيب التهذيب (٢/٧٣) .
(١٤٢) البداية والنهاية (٨/٥٦) .
(١٤٣) الاستيعاب (١/٢٣٨) .
(١٤٤) الاصابة (١/٢٤٣) .
(١٤٥) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٤٨) .

وروى البخاري ومُسْلِم عن أَنَس بن مالك خادم النّبي صلى الله عليه وسلّم ، قال : « خرجتُ مع جرير في سفرٍ ، فكان يخدمني . فقلت له : « لا تفعل ! فقال : إني رأيتُ الأنصار تصنع برسول الله صلى الله عليه وسلّم أشياء ، آليتُ ألاّ أصحب أحداً منهم إلاّ خدمته »،وكان جرير أكبر من أنس رضى الله عنهما (١٤٦) .

أما عن حُسن أخلاق مُعَاذ بن جَبَل ، فحدِّث عن البحر ولا حَرَج ، كما يقول المثل العربي المشهور . بينما كان عبدالله بن مَسْعُوْد رضى الله عنه ، يُحدِّث أصحابه ذات يوم ، إذ قال : « إنَّ مُعَاذاً كانَ أُمَّةً قانتاً لله حنيفا ولم يَكُ من المشركين » ، فقال له رجل : « يا أبا عبدالرَّحمن ! نَسِيْتَها ؟ ! » ، وظنَّ الرَّجل أَنَّه أَوْهَمَ ، فقال ابن مسعود : « هل تدرون، ما الأُمَّة ؟ » ، قالوا : « ما الأُمَّة ؟ » ، قال:« الذي يُعلِّم النَاسَ الخير » ، ثمّ قال : « هل تدرون ، ماالقانت ؟ » ، قال : « القانت المطيع لله » ، وقال : « كُنّا نُشَبِّهُ مُعَاذاً بابراهيم » (١٤٧) .

وكان مُعاذ يقول : « إعلموا ماشئتم أن تعلموا ، فلن يؤجركم اللهُ بعلمٍ حتى تعملوا » ، وكان يقول : « تعلّموا ماشئتم أن تعلموا ، فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا » (١٤٨) ، إذ لاقيمة بالعلم بدون عمل ، والعمل هو حسن الخُلُق .

ولما أراد النبّي صلى الله عليه وسلّم أن يبعث مُعَاذاً إلى اليمن أوصاه النبّي صلى الله عليه وسلّم فقال : « يامُعَاذ ! » أُوصيك وصيَّة الأخ الشَّفيق ،

---

(١٤٦) تهذيب الأسماء واللغات (١٤٧/١) .
(١٤٧) طبقات ابن سعد (٣٤٨/٣) وانظر حلية الأولياء (٢٣٠/١) وأسد الغابة (٣٧٨/٤) والاصابة (١٠٦/٦) والاستبصار (١٣٨) وتهذيب التهذيب (١٨٧/١٠) والبداية والنهاية (٩٥/٧) .
(١٤٨) حلية الأولياء (٢٣٦/١) .

أوصيك بتقوى الله » ، فذكر نحوه وزاد : « وعِدِ المريض ، واسرع في حوائج الأرامل والضّعفاء ، وجالس الفقراء والمساكين ، وأنصف النّاس من نفسك ، وقُلْ الحقّ ، ولا تأخذكَ في الله لومَة لائم » (١٤٩) ، فكانت وصيّة النبّي صلى الله عليه وسلّم منهاج حياته العمليّة حتى ذهب إلى رحاب الله .

لقد كان معاذ من أحسن الناس وَجْهاً ، وأحسنهم خُلُقاً ، وأسمحهم كفّاً (١٥٠) .

وكان أبو موسى الأشعري على البصرة ، فلما نُزِع عنها ، لم يكن معه إلاّ ستمائة درهم عطاء عيال(١٥١) ، وكان الحسن البصري يقول : « ما أتاها – يعني البصرة – راكب خير لأهلها منه » (١٥٢) .

ولما عُزل عن البصرة ، سار منها إلى الكوفة ، فلم يزل بها حتى أخرج أهلها عاملهم وطلبوا من الخليفة أن يستعمل أبا موسى عليهم ، فاستعمله (١٥٣) ، فكان أول أمير يختاره الناس عليهم في الاسلام ، لحسن خُلُقه ومعاملته واستقامته .

لقد كان أصحاب النّبي صلى الله عليه وسلّم يتميّزون بالخُلُق الكريم ، وكان سفراؤه من جملة أصحابه عليه الصّلاة والسلام في أخلاقهم الكريمة ، إن لم يكونوا من المُصْطَفَين الأخيار من الصّحابة عليهم رضوان الله .

ولعلّ التّمادى في ضرب الأمثال على حُسن خُلُق سفراء النبّي صلى الله عليه وسلّم سيزيد في هذه الدراسة حجماً ويضاعف صفحاتها دون ضرورة ،

---

(١٤٩) حلية الأولياء (١/٢٤٠ – ٢٤١) .
(١٥٠) طبقات ابن سعد (٣/٥٨٧) .
(١٥١) طبقات ابن سعد (٤/١١١) .
(١٥٢) الاصابة (٤/١٢٠) .
(١٥٣) اسد الغابة (٣/٢٤٧) و (٥/٣٠٩) والاصابة (٤/١٢٠) .

لأن حُسن الخُلُق في الصّحابة من المزايا التي لاتحتاج إلى دليل ، ولكنّ الشّواهد التي ذُكرت تفيد القدوة والاقتداء ، وما أحوج الناس إلى القدوة الحسنة في هذه الأيام .

وقديماً قالوا : « المعروف لا يُعَرَّف » .

٥ ـ الصَّبْر

الصّبر من فروض الاسلام ، وهو نصف الايمان ، وقد ذكره القرآن الكريم في أكثر من ثمانين موضعاً ، آمراً به : (واسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ) (١٥٤) ، ونهياً عن ضدّه : (واصْبِرْ كما صَبَرَ أُولُو العَزْمِ من الرُّسُلِ ، ولا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ) (١٥٥) ، ومحبّةً لأهله : (واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) (١٥٦) ، ومعيّته تعالى لهم : (إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (١٥٧) ، وعاقبته خير : (وإنْ تَصْبِروا خَيْرٌ لكم) (١٥٨) ، وجزاؤه عظيم : (إنَّما يُوَفَّى الصَّابِرونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (١٥٩) . وأهل الصّبر هم المنتفعون بالآيات والعظات : (إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) (١٦٠) ، وهو سببٌ لدخول الجِنان : (سَلامٌ عليكم بما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) (١٦١) ، وبالصّبر

---

(١٥٤) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ٤٥) .
(١٥٥) الآية الكريمة من سورة الأحقاف (٤٦ : ٣٥) .
(١٥٦) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ١٤٦) .
(١٥٧) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ١٥٣) وسورة الأنفال (٨ : ٤٦) .
(١٥٨) الآية الكريمة من سورة النساء (٤ : ٢٥) .
(١٥٩) الآية الكريمة من سورة الزمر (٣٩ : ١٠) .
(١٦٠) الآية الكريمة من سورة ابراهيم (٤ : ٥) .
(١٦١) الآية الكريمة من سورة الرعد (١٣ : ٢٤) .

واليقين تُنال الامامة في الدِّين : (وجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُوْنَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وكانوا بآياتِنَا يُوْقِنُوْن) (١٦٢) .

هذا بعض ما في القرآن الكريم على الصّبر .

وفي السُنّة النَّبويَّة أحاديث كثيرة في الصّبر ، منها : « ماأُعطى أحد عطاء خيراً له وأوسع من الصَّبر » (١٦٣) و : « عجباً لأمر المؤمن ، إنّ أمره كلّه خير ، وليس ذلك لأحد إلاّ المؤمن ، إنْ أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرّاء صبر ، فكان خيراً له » (١٦٤) .

والصَّبر لغةً : الحبس ، والكفّ ، والتّجلُّد ، وحُسْن الاحتمال والصَّبر عن المحبوب : حبس النّفس عنه .

والصّبر على المكروه : احتماله دون جزع . وقالوا : قتله صبراً : حبسه حتى مات . وشَهْرُ الصَّبر : شهر الصّوم ، لما فيه من حبس النّفس عن الشّهوات .

والصَّبر شرعاً ، هو على ثلاثة أنواع : صبر على طاعة الله ، وصبر على معصية الله ، وصبر على المصائب والبلاء .

الصّبر على طاعة الله ، يكون بالمحافظة عليها دوماً ، والاخلاص فيها ، ووقوعها على مُقتضى الشّرع ، وممّا يُعين على تحصيله المعرفة بالله ، وحقّه على العباد ، وحُسْن الجزاء للمطيعين .

والصّبر على المعصية ، يكون بهجر السّيئات ، والفرار من المعاصي ، والدّوام على هذا الفرار وذلك الهجر . وممّا يُعين على تحصيل هذا الصّبر ،

---

(١٦٢) الآية الكريمة من سورة السجدة (٣٢ : ٢٤) .

(١٦٣) متفق عليه ، رواه ابو سعيد الخدري ، انظر رياض الصالحين ـ باب الصبر ـ ط ٣ ـ (٢٩) ـ مطبعة النهضة الحديثة بمكة المكرمة ـ ١٣٩٨ هـ .

(١٦٤) رواه مسلم ، انظر رياض الصالحين (٢٩) ، ورواه احمد بن حنبل في مسنده ايضاً ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٩٦/٢) .

استحضار الخوف من عذاب الله ، وأعلى من هذا استحضار الحياء من الله: والمحبّة له ، مع استحضار ثمرة هذا الصّبر ، وهي إبقاء الايمان وتقويته وإنماؤه ، لأنّ المعصية تُنقص الايمان أو تُضعفه أو تُكدّره أو تُذهب نوره وبهاءه .

والصّبر على البلاء والمصائب ، يكون بترك التّسخُّط ، واحتمال المؤلم المكروه ، وترك الشّكوى للناس ، فانّ الصبر الجميل لايتّفق مع الشّكوى للمخلوق ، ويتّفق مع الشّكوى لله وحده ، قال تعالى عن يعقوب عليه السّلام (إنّما أَشْكو بَثّي وَحُزْني إلى الله) (١٦٥) ، وقال عن أيّوب : (رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُرُّ وأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ) (١٦٦) ، مع قوله تعالى عنه في آية أخرى : (إِنَا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ، نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) (١٦٧) .

ومّما يستدعي هذا الصّبر ، استحضار نِعَم الله التي لاتُعدّ ولا تُحصى ، فتهون على المصاب مصيبته ، ويَقِلُّ وقعها على نفسه ، وممّا يُعين أيضاً على الصّبر على البلاء ، تذكر الجزاء العظيم للصابرين (١٦٨) .

والصّبر الجميل ، جزء لايتجزّأ من حُسْن الخلق ، وقد خصّصنا له هذه الفقرة التي جاء بعد فقرة : (حُسْن الخُلق) ، مباشرة ، للتركيز على أهمية الصبر بالنسبة للسّفير أولاً ، ولبيان الصِّلة العضوية بين حُسْن الخُلق والصّبر .

وإذا كان الصّبر ضرورياً لكل إنسان، وبخاصة المسلم ، فانّ الصبر للسّفير أشدّ ضرورة له من غيره ، لأنّه يعمل في ميدانين : ميدان نفسه ، يجاهدها ،

---

(١٦٥) الآية الكريمة من سورة يوسف (١٢ ــ ٨٦) .
(١٦٦) الآية الكريمة من سورة الأنبياء (٢١ : ٨٣) .
(١٦٧) الآية الكريمة من سورة ص (٣٨ : ٤٤) .
(١٦٨) اصول الدعوة (٢٣٥ ــ ٢٣٦) .

ويحملها على الطّاعة ، ويمنعها من المعصية . وميدان خارج نفسه ، وهو ميدان الدّعوة إلى الله ، ومخاطبة مَنْ أُرسل إليهم في موضوعها ، فيحتاج إلى قدر كبير في المجالين من الصّبر الجميل ، حتى يستطيع تجاوز العقبات ، وتحمّل الأذى ، فان تخلّى عن الصبر وأُصيب بالجزع ، انهار ، وقعد ، أو انسحب من الميدان ، فاستحقّ العقاب وفاته الثّواب (١٦٩) .

وقد نبّه النّبي صلى الله عليه وسلّم أصحابه حول عدم الاختلاف ، والصّبر على تنفيذ الواجبات الملقـاة على عواتقهم ، فخرج على أصحابه ذات يوم بعد عُمْرَته التي صُدَّ عنها يوم الحُدَيْبِيَّة فقال : « أيّها النّاس ! إنّ الله قد بعثني رحمةً وكافة ، فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريّون على عيسى بن مريم » ، فقال أصحابه : « وكيف اختلف الحواريّون يارسول الله ! » ، قال « دعاهمُ إلى الذي دعوتكم إليه ، فأما مَنْ بعثه مَبْعَثاً قريباً ، فرضي وسلّم ، وأما مَنْ بعثه مَبْعثاً بعيداً ، فكره وجهه وَتثاقل » ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلّم رسلاً من أصحابه ، وكتب معهم كُتُباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الاسلام (١٧٠) وما اختلف أصحاب عيسى عليه إلاّ من جزعهم لانهم لايصبرون على السّفر البعيد ، أما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم فلم يختلفوا عليه ، لأنّهم يصبرون على السّفر البعيد وعلى غيره من الصِّعاب ، فكلّ شيء بالنسبة لهم يهون مادام فيه خدمة الاسلام والمسلمين .

لقد كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلّم قِمّة في الصَّبر الجميل ، فقد نجحوا نجاحاً باهراً في اجتياز الصعوبات والنّوائب والمصائب التي لاقتهم في حياتهم العمليّة بعد إسلامهم ، إذ كانت مقاومة المشركين للاسلام والمسلمين عنيفة جدا . وكان سفراء النّبي صلى الله عليه وسلّم هم صَفوة الصّابرين

---

(١٦٩) اصول الدعوة (٢٣٧) .

(١٧٠) سيرة ابن هشام (٢٧٨/٤ ـ ٢٧٩) .

المحتسبين من الصحابة ، لذلك صبروا على ما أصابهم في سفاراتهم صبراً جميلا ، وأقبلوا على تنفيذ مهماتهم إقبالاً كاملا .

ولقد هاجر جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة ، فصبر على الغربة أربع عشرة سنة فيها ، وصبر على محاولات مشركي قريش لاعادته وإعادة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة من مهجرهم إلى مكة ليصبُّوا عليهم العذاب والفتنة والتنكيل ، وصبر على صعوبة الحياة في المهجر وشدتها ، وأخيراً تكلل صبره الطويل بالنجاح ، فالتحق بالنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين المهاجرين إلى المدينة المنورة ، حيث استقرّ هو ومَنْ كان معه في الحبشة من المهاجرين في المدينة المنورة .

وصبر دحية بن خليفة الكلبي على محاولة تبليغ هرقل قيصر الروم الكتاب النبويّ ، ولم يكن الوصول إلى هرقل والاتصال به وتبليغه ودعوته إلى الاسلام من الأمور السهلة ، ولكنه صبر صبراً جميلاً حتى حقق أهدافه كاملة بنجاح كبير .

وصبر عبدالله بن حذافة السهمي على محاولة تبليغ كسرى أبرويز بن هرمز ملك الفرس الكتاب النبويّ ، وكان الوصول إلى كسرى من أصعب الأمور في حينه ، ولكنه بالصبر الجميل وبالاصرار الحاكم ، تحقق له ما أراد .

وشهد عبدالله بعد التحاق النبي صلى الله عليه وسلم ، معارك فتح بلاد الشام ، فأسره الروم في بعض غزواته على قيسارية (١٧١) ، فقال له

---

(١٧١) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) ، تعد من أعمال فلسطين ، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام ، وكانت في قديم الأيام من أعيان أمهات المدن ، واسعة الرقعة ، طيبة البقعة ، كثيرة الخير والأهل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٥/٧ ــ ١٩٦) ، وانظر أسد الغابة (١٤٣/٣) حول أسره في قيسارية .

ملك الرُّوم : « تنصّر أُشركك في مُلكي » ، فأبى . فأمر به فصُلب ، وأُمر برمية بالسِّهام ، فلم يجزع ، فأُنزِل !

وأمر ملك الرّوم بقِدرٍ ، فصَبّ فيها الماء وأُغلي عليه ، وأُمر بالقاء أسير فيها ، فإذا عظامه تلوح ، فأمر بالقائه بالقِدر التي تغلى إن لم يتنصَّر ، فلما ذهبوا به بكى (١٧٢) ، فقالوا : « قد جزع ! قد بكى ! » ، فقال الملك : « ردّوه ! » ، فقال عبدالله : « لاترى أني بكيتُ جزعاً ممّا تريد أن تصنع بي ، ولكني بكيت حيث ليس لي إلاّ نَفْس واحدة ، يُفعل بها هذا في الله ! ! كنتُ أحبّ أن يكون لي من الأنفس عدد كلّ شعرة فيّ ، ثمّ تُسَلّط عليّ ، فتفعل بي هذا ! » ، فقال : « تنصّر وأُزوجك بنتي وأُقاسمك ملكي » ، قال : « ما أفعل » ، فقال : « قَبّل رأسي وأُطلقك وأُطلق معك ثمانين من المسلمين » ، فقال : « أما هذه ، فنعم » وقَبّل عبدالله رأس ملك الرّوم ، فأطلق سراحه ، وأطلق معه سراح ثمانين من أسرى المسلمين فلما قدموا على عمر بن الخطّاب رضى الله عنه ، قام إليه عمر وقَبّل رأسه ، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم يمازحون عبدالله ، فيقولون : « قَبّلْتَ رأس عِلْج ؟ ! » ، فيقول لهم : « أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين » (١٧٣) .

ولا يمكن أن يختلف اثنان في أنّ صبر عبدالله كان صبراً جميلاً مثالياً ، وكان مضرب الأمثال في صبره الجميل .

وصَبَرَ حاطب بن أبي بَلْتَعَة في حِلِّه وترحاله ، حتى وصل إلى الأسكندريّة ، ثم صبر حتى استطاع أن يوصل الكتاب النبويّ إلى المقوقس ، وصبر على مناقشة منطقيّة حصيفة ، فتُوِّج صبره الجميل باقناع المقوقس

(١٧٢) الاصابة (٥٧/٤) .
(١٧٣) أسد الغابة (١٤٣/٣) .

بوجهة نظره ، فعاد أدراجه محمّلاً بهدية المقوقس النّفيسة إلى النّبي صلى الله عليه وسلّم بسلام .

أما شُجاع بن وَهْب الأسدى ، فقد انتظر طويلاً على باب الحارث بن أبي شَمِر الغَسّاني ، وصبر على هذا الانتظار دون كلل ولا ملل ، والانتظار أحرّ من النار كما يقول المثل العربي المشهور . فلما قابل الحارث ، ردّ عليه الحارث بالتّهديد والوعيد ، ولكنّه صبر على كلّ ذلك صبراً جميلاً ، حتى زالت المحنة وعاد إلى المدينة (١٧٤) .

وقد صبر سَلِيط بن عمرو العامِرِيّ القُرَشِيّ على هَوْذَة بن عليّ الحَنَفِيّ صبراً جميلاً ، فقد كان هوذة يساوم على إسلامه ، فاستعان سليط على هوذة بثُمَامة بن أُثال الذي كان قد أسلم ، فلم تُفلح وساطة ثُمامة ، وأصر هوذة على أطماعه ، فلم يُسْلِم ، ومات على دينه ، وما جزع سليط بل صبر كما يصبر الصابرون المحتسبون (١٧٥) .

وكان الصّبر الجميل في طبع عمرو بن العاص ، ظهر قبل إسلامه وبعد اسلامه في مواقف كثيرة ، فقد بذل محاولات لم تكلّل بالنجاح في سفارته إلى النّجاشي ملك الحبشة ، حين أوفده مشركو قريش لرد المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة من مهجرهم إلى مكّة ، إلاّ أن سفارته النبويّة تكلّلت بالنجاح .

كما أنّ أعماله العسكرية ، وبخاصة حصار بابِلْيون أولاً ، وحصار الاسكندريّة ثانياً ، تدل على تمتّعه بالصبر الجميل .

وقد صبر العَلاء بن الحَضْرَمِيّ في مواقف لاتُعدّ ولا تُحصى ، وخاصة في اجتياز صحراء الدهناء المخوفة على رأس المجاهدين من رجاله ، وفي

---

(١٧٤) انظر : طبقات ابن سعد (٢٦١/١) وابن الأثير (٢١٣/٢) والبداية والنهاية (٢٦٨/٤) وطبقات ابن سعد (٩٤/٣ ــ ٩٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٦٣/١) .

(١٧٥) ابن الأثير (٢١٥/٢) .

مصاولة المرتدين العنيفة ، وفي اجتياز البحر إلى أرض الفُرس ، وما كان بقادر على تحمّل ماصادف من عقبات جِسام ؛ لو لم يعالجها بما عُرف عنه من صبر جميل .

ولم يُقتل للنبي صلى الله عليه وسلّم رسول غير الحارث بن عُمَير الازدِيّ رسوله إلى ملك بُصْرَى ، فقد قُتل صَبْرا (١٧٦).

ولاقى المهاجر بن أبي أُمَيَّة المخزوميّ الأَمَرَّيْن في حرب رِدّة اليمن ، ولكنّه صبر وصابر ورابط ، حتى كُتب له النّصر وكُتب للقادة والمجاهدين الذين ثبتوا وصبروا في ثباتهم صبراً جميلا .

وصبر جرير بن عبد الله البَجَلِيّ في حرب الرِدَّة ، وفي حرب فتح العراق ، وحرب فتح بلاد الشام ، وصبر على جمع قبيلته بَجِيلَة المشرّدة ، حتى تم جمعها على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فحقّق بصبره الجميل ماكان يصبو إليه من انتصارات وآمال .

وكان صبر مُعَاذ بن جَبَل على التعلم والتّعليم وحرب الردّة وعلى الادارة والقضاء والجباية ، وأخيراً على الطّاعون الذي اجتاح فلسطين كما تجتاح النار الغابات ، حتى استُشهد بالطّاعون دون أن يتخلى عن رجاله في ساعة محنتهم ، فكان سعيداً باستشهاده أكثر من سعادته ببقائه على قيد الحياة ، بدليـــل أنه رفض عرض عمر بن الخطّاب في محاولة استخراجه من منطقة الطّاعون ، وذلك هو الصّبر الجميل في أروع مظاهره : الصّبر على تقبل الموت مع رجاله ، والترفع عن الحياة بعيداً عن أولئك الرِّجال .

أما أبو موسى ، فحديثه مع الصّبر الجميل يطول ، فكلّ حياته صبر جميل ، وهو أسوة حسنة للصّابرين المحتسبين في كل زمان ومكان .

---

(١٧٦) اسد الغابة (٣٤٢/١) والاستيعاب (٢٩٨/١) .

ولم يكن عمرو بن حزْم الأنصاري الخزرجيّ ، بأقل صبراً من زملائه سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقد صبر على مشقّات الجهاد ، وصبر على مشاكل الحياة ، وصبر على الدّعوة إلى الله ، وصبر على الادارة والجباية في اليمن ، وصبر على أحداث السّلام ، وأدّى واجبه كاملاً في خدمة الاسلام والمسلمين .

إنّ الصبر الجميل سِمة من سِمات سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلم، وما كُنتُ بحاجة إلى التدليل على صبرهم ، فما أردت بذلك إقناع مَنْ لايقتنع بأنّهم يتحلون بتلك السِّمة ، لأنّني لاأتصور أنّ هناك مَنْ لايقتنع بأنّ هذه السِّمة واضحة المعالم بارزة الأثر في السّفراء النبويين ، ولكنّني ذكرت ماذكرتُ من شواهد لغرض العِبْرة والقُدوة والأُسوة ، وضربُ الأمثال قد يفيد في ذلك لمن يريد أن يستفيد .

٦ ـ الشّجاعة

ليست الشّجاعة ضرورية للمجاهدين حسب ، بل هي ضرورية للانسان في السّلام كما هي ضروريّة له في الجهاد .

وكما يُحتمل أن يفقد الذي لايتحلى بالشّجاعة حياته في ميدان القتال ، كذلك يُحتمل أن يفقد الذي لايتحلىّ بالشّجاعة حقوقه في ميدان الحياة :

وقد كان سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلم من صَفوة الصّحابة المتميزين بالشّجاعة ، لذلك أثبتوا وجودهم بنجاح في ميدان الحرب والسّلام .

وقد تحدّث التاريخ على شجاعة السُفراء النّبويين في مواجهة مَنْ أرسلهم النبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم من ملوك وأُمراء ، دون أن يخشوا في الله لومة لائم ، فبلغوا الدّعوة ، وسلّموا الكُتُب النبويّة إلى الذين أُرسلت لهم ، وتحدّثوا معهم حديث الندّ للند ، وأدّوا مهمّاتهم كما ينبغي كاملة دون خوف أو وَجَل أو تردّد .

وقد تحدّثت على اتّصال سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلم بالملوك والامراء الذين أرسلوا إليهم بشجاعة واقتدار ، بما فيه الكفاية ، ولابأس في الحديث على شجاعتهم في المجالات الأخرى ، لعلّ في الحديث عليها قدوة لمن يريد أن يقتدى وأُسوة لمن يريد أن يتأسّى .

كانت شجاعة جعفر بن أبي طالب المعنوية في مناقشة عمرو بن العاص سفير مشركي قريش إلى النّجاشي ملك الحبشة ، وعرضهُ تعاليم الاسلام عرضاً موضوعياً شيّقاً ، ودفاعه عن حريّة الدّعوة وحرية المسلمين المهاجرين ، شجاعةً فائقة حقاً .

وعاد جعفر إلى المدينة المنوّرة بعد بقائه نحو اربعة عشر عاماً في بلاد الحبشة مهاجراً ، فولاّه النبيّ صلى الله عليه وسلّم قيادة سرية مُؤْتَة بعد زيد ابن حارثة الكَلْبِي ، إذ قال عليه الصّلاة والسّلام : « أمير الناس زيد بن حارثة ، فان قُتِل فجعفر بن أبي طالب ، فأن قُتل فعبد الله بن رَوَاحة ، فان قُتل فَلْيَرْتضِ المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم » .

وأخذ اللواء زيد بن حارثة ، فقاتل حتى استشهد طعناً بالرّماح(١٧٧) .

وأخذ اللواء جعفر بن أبي طالب ، فترجّل عن فرس له شقراء ، فعرقبها (٧٧) فكانت أوّل فرس عُرْقبت في الاسلام ، وقاتل حتى استشهد ، ضربه رجل من الرّوم ، فقطعه نصفين ، فوجد في أحد نصفيه بضعة وثلاثون جرحاً ، ووجد فيما أقبل من بَدَن جعفر مابين منكبيه تسعون ضربة بين طعنة برمح وضربة بسيف ، وفي رواية أخرى اثنتان وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح (١٧٨) .

---

(١٧٧) عرقبها : قطع عرقوبها . وعرقوب الدابة في رجلها .

(١٧٨) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٤/٣٨ ــ ٣٩) .

وكان عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْري من رجال العرب نجدة وجرأة (١٧٩) ، وأحد أبطالهم (١٨٠) ، وكان شجاعاً (١٨١) . ومن بطولاته ، ان مشركي قريش صلبوا خبيب بن عدي في ضواحي مكة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن امية أن يستنقذ جثمان الشّهيد خُبَيب بين حُراسه ، فحمل جثّة خبيب من الخشبة التي صُلب عليها ، وعاد بها إلى المدينة المنوّرة .

وفي طريق عودته من مكّة إلى المدينة ، قتل أحد المشركين ، وقتل آخر سمعه يهجو المسلمين ، ولقي رسولين لقريش يتجسّسان ، فقتل أحدهما ولما قدم المدينة ، أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلّم خبره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلّم يضحك (١٨٢) .

وقد شهد دِحْيَة بن خليفة الكَلْبيّ معركة اليرموك الحاسمة التي كانت بين المسلمين من جهة والرّوم من جهة ، قائداً لكردوس من كراديس المسلمين في تلك المعركة (١٨٣) التي كانت بقيادة خالد بن الوليد ، وكان خالد هو الذي اختار قادة الكراديس من بين أشجع المسلمين وأكثرهم إقداماً وتجربة وحنكة وشجاعة .

وثبات عبد الله بن حُذَافة السَّهْمي وصبره على التّهديد والوعيد الذي تعرّض له من ملك الرّوم (١٨٤) ، دليل على شجاعته النادرة وصبره الجميـــل .

وقد أصبح بعد التحاق النبيّ صلى الله عليه وسلم من قادة الفتح الاسلامي

---

(١٧٩) تهذيب التهذيب (٦/٨) .
(١٨٠) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٨٧) .
(١٨١) الاصابة (٢٨٥/٤) .
(١٨٢) طبقات ابن سعد (٩٣/٢ ــ ٩٤) وعيون الأثر (١١٢/٢) ، وانظر سيرة ابن هشام (٣١٠/٤ ــ ٣١٢) وانساب الأشراف (٣٧٩/١ ــ ٣٨٠) .
(١٨٣) الاصابة (١٦٢/٢) .
(١٨٤) أسد الغابة (١٤٣/٣) .

في مصر ، وله فتوحات معروفة في تلك البلاد (١٨٥) .

وشهد حاطب بن أبي بَلْتَعَة غَزْوَة بَدْرٍ الكبرى ، وأبلى في هذه الغزوة بلاء حسنا ، وأسر فيها أحد المشركين (١٨٦) ، وقتل فيها مشركاً واحداً أيضا (١٨٧) ، كما شهد غزوة أُحُد ، وكان أحد الرُّماة المذكورين في هذه الغزوة (١٨٨) ، كما شهد غزوات النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، وكان من أمهر الرُّماة في الصّحابة (١٨٩) ، وكان من المشهود لهم بالشجاعة والاقدام .

وشهد شُجاع بن وَهْب غزوة بَدْرٍ الحاسمة ، كما شهد مشاهد النبيّ صلى الله عليه وسلّم كلّها ، لم يتخلّف عن مشاهدها ، بالاضافة إلى مشاهدته بعض سراياه ، وكان قائداً من قادة النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، وأبلى في مشاهده أعظم البلاء . واستشهد يوم اليَمَامة سنة إحدى عشرة الهجرية (١٩٠) .

وشهد سَلِيط بن عمرو العامِريّ القُرشِي بعض مشاهد النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، فلما التحق النبيّ صلى الله عليه وسلم ، كان سَلِيط أحد قادة أبي بكر الصِّدّيق في حرب الرِدَّة ، فاستُشهد في معركة اليَمَامة سنة إحدى عشرة الهجرية (١٩١) . بعد أن أبلى في القتال بلاء حسنا .

---

(١٨٥) انظر : فتوح البلدان (٣٠٤) .
(١٨٦) مغازي الواقدي (١٤٠/١) .
(١٨٧) انساب الأشراف (٣٠٢/١) .
(١٨٨) مغازي الواقدي (٢٤٣/١) وانساب الأشراف (٣٢٣/١) .
(١٨٩) طبقات ابن سعد (١١٤/٣) .
(١٩٠) طبقات ابن سعد (٩٥/٣) وانظر البداية والنهاية (٣٣٧/٦) والاصابة (١٩٤/٣) واسد الغابة (٣٨٦/٢) والاستيعاب (٧٧/٢) .
(١٩١) طبقات ابن سعد (٢٠٣/٤) وانساب الأشراف (٢١٩/١) .

وشجاعة عمرو بن العاص وإقدامه لايحتاجان إلى دليل ، فهو من قادة النبيّ صلى الله عليه وسلّم ومن قادة الفتح الاسلامي العظيم، وله بلاء في حروب الرِدَة وفي معارك الفتح ، وفتوحات كثيرة معروفة ، تدل على شجاعته وإقدامه .

وكان للعلاء بن الحَضْرمي جهاد مشهود تحت لواء النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، وفي حرب الرِدَة في منطقة البحرين ، وفي منطقة بلاد فارس وبخاصة منطقة الأهواز ، فكان في جهاده بطلاً من أبطال المجاهدين المتميزين بالشجاعة والاقدام .

ودفع الحارث بن عُمَير الأزدي حياته ثمناً لصدقه ، فقدِّم وقُتل صبراً ، ولم يُقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلّم رسول غيره ، فكان شهيد العقيدة وشهيد الصِّدق ، وكان المثال الرائع للشجاعة والاقدام .

وكانت للمهاجر بن أبي أُمَيَّة المخزومي مواقف بطولية تدلّ على شجاعته وإقدامه في حرب الرِدّة باليمن ، حتى استطاع ومن معه من القادة والمجاهدين استعادة الوحدة إلى ربوع اليمن السعيد تحت ظلّ الاسلام .

أما جرير بن عبدالله البَجَلِيّ ، فكان من قادة النبيّ صلى عليه وسلّم وسفرائه ، وقد شهد حرب الرِدّة في اليمن ، فكان له أثر كبير في إعادة المرتدين إلى الاسلام . وشهد فتوح العراق والشام ، وفي معركة اليرموك الحاسمة برز اسمه واحداً من الفدائيين الفرسان من المهاجرين والأنصار ، وهم مائة فارس ، اختارهم خالد بن الوليد من بين رجال جيشه في اليرموك ، كلّ فارس منهم يردّ جيشاً وحده ، للتأثير في معنويات الرُّوم قُبيل معركة اليرموك الحاسمة

وعاد إلى ساحة الجهاد في العراق ، فقاتل تحت لواء المُثَنَّى بن حارثة الشَّيْبَانِي ، وأبلى في قتاله بلاء حسنا .

وكان جرير على ميمنة النّاس في معركة القادسية الحاسمة ، وكان له نصيب بارز في احراز النصر على الفرس في تلك المعركة الحاسمة .

وشهد فتح المدائن تحت لواء سعد بن أبي وقّاص ، ثم تولى القيادة وأصبح قائداً من قادة الفتح الاسلامي ، وله فتوحات في العراق وبلاد فارس معروفـــة .

لقد كان جرير بطلاً لامعاً من أبطال المسلمين .

وشهد مُعَاذ بن جَبَل مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، لم يتخلّف عن أيٍّ مشهد من تلك المشاهد ، وأبلى في مشاهده كلّها بلاء حسنا

وشهد حرب الرِدّة في اليمن ، وكان أبرز قائد من قادة المسلمين في الردة اليمنيَّة ، حتى استطاع إحراز النصر على المرتدين وإعادتهم إلى الاسلام من جديد .

وكان من أعزّ أمانيه أن يموت شهيدا ، فمات في الطّاعون ، والمطعون شهيد .

وقد حاول عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، استخراج أبي عُبَيْدَة بن الجرّاح ومُعَاذ بن جَبَل من المنطقـــة التي اجتاحها الطّاعون في فلسطين ، فآثر مُعَاذ أن يبقى مع رجاله ويموت معهم على أن يرحل عنها وينجو بنفسه دون رجاله من الموت . وهذا وحده دليل على شجاعته الفائقة ، بالاضافة على دلالته إلى أمور أخرى لاتخفى على أحد .

وكان له في حرب الرِدّة في اليمن مواقف مشهود ة ، حتى انتصر على المرتدين مع مَنْ معه من القادة والمجاهدين .

وقد أصبح أحد قادة الفتح الاسلامي على عهد عمر بن الخطّاب رضى الله عنه ، ففتح مناطق واسعة جداً من بلاد فارس .

وكان لشجاعته وإقدامه أعظم الأثر في انتصاراته المتوالية شرقاً وغرباً .

لقد كانت الشّجاعة في شتى صورها وأشكالها ، سِمة من سمات السُفراء النّبويين .

٧ ـ الحكمة

وردت كلمة : (حَكَمَ) ومشتقاتها في مائتين وعشر آيات من آيات القرآن الكريم (١٩٢) ، ووردت كلمة : (الحِكْمَة) في عشرين آية منها ، وكلمة : (الحَكيم) في سبع وتسعين آية منها .

ووردت كلمة : (الحِكْمَة) في الحديث النّبوى في عشرين حديثاً ، وكلمة : (الحَكيم) في ستّة أحاديث نبويّة (١٩٣) .

والحِكْمَة : هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، وهي العلم والتّفقه ، وفي التنزيل العزيز :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ) (١٩٤)، وهي الكلام الذي يقلّ لفظه ويجلّ معناه .

والحكيم اسم من أسماء الله الحُسنَى ، والحكيم من الحكمة ، بمعنى العلم والعدل وحسن التدبير (١٩٥)، وبالرّغم من كثرة ورود كلمتى : الحكمة ، والحكيم ، في القــرآن الكريم والحديث النبوى الشَريف ، فانّ معنى هاتين الكلمتين مختلف عليه ، فكلّ كلمة من كلمات : الحكمة ، والحكيم ، التي وردت في القرآن الكريم لها معاني خاصة بها بالنسبة لورودها في الآية الكريمة وبالنّسبة لرأي المفسّر ، وما يقال عن ورود هاتين الكلمتين

---

(١٩٢) انظر التفاصيل في : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (٢١٢ ـ ٢١٥) ـ مطبعة الشعب ـ القاهرة ـ ١٣٧٨ هـ .

(١٩٣) انظر التفاصيل في : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (٤٩١/١) ـ مكتبة ليدن ـ ليدن ـ ١٩٣٦ م .

(١٩٤) الآية الكريمة من سورة لقمان (٣١ : ١٢) .

(١٩٥) القاموس الاسلامي (١٢٨/٢) ـ ط ١ ـ القاهرة ـ ١٣٨٦ هـ .

في الذّكر الحكيم وعن تفسيرهما ، يقال عن ورودهما في الحديث النّبويّ الشّريف وعن تفسيرهما أيضا . والقرآن الكريم والسُّنّة النّبوية هما لكلّ زمان ومكان ، فمن الأفضل أن يبقى الباب مفتوحاً في تفسير معنى : الحكمة ، والحكيم ، لأنّ المعاني تتغيّر بالنسبة للزمان والمكان ، وما يُقْبل في زمان مُعَيَّن ، قد لا يُقْبل في زمان ومكان معيّنين آخرين ، ومن الحكمة أن تبقى معاني الحكمة والحكيم مَرِنَةً لتصلح لكلّ زمان ولكلّ مكان ولكلّ أُمّةٍ من الأُمم ، ولكلّ جيل من أجيال تلك الأُمم .

وقد تميّز سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم بالحكمة ، فلابدّ أن يكون السّفير مُقنعاً ، حسن التّصرف ، مُتَّزِناً ، غير متهوّر ، عاقلاً ، ذكيّاً ، حاضر البديهة ، قويّ الحجّة ، سليم المنطق ، هادئ الطبع ، مجرّباً ، إلى غير تلك المزايا التي تجعل من السفير حكيماً في تصرّفه ، ينطق بالحكمة ، ويدعو إلى الحكمة .

لقد كانت مناقشة جعفر بن أبي طالب في أرض الحبشة ، لعمرو بن العاص سفير مشركي قريش إلى النّجاشي ، بحضور النّجاشي ملك الحبشة ، صورة من صور الحكمة ، استطاع بها التغلّب على عمرو ، وإقناع النّجاشي بعدالة قضيّته (١٩٦) .

ولما قرأ المقوقس كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم الذي حمله اليه حاطب بن أبي بَلْتَعَة ، قال : « مامنعه إن كان نبيّاً أن يدعو عليّ فيُسَلّط عَليّ ؟ ! ! » ، فقال حاطب : « مامنع عيسى بن مريم ، أن يدعو على مَنْ أبى عليه أن يُفْعَل به ويُفْعَل ؟ ! ! » ، فوجم المقوقس ، ثمّ استعادها ، فأعادها عليه حاطب ، فسكت (١٩٧) .

---

(١٩٦) انظر التفاصيل في : سيرة ابن هشام (١/٣٥٨ ـ ٣٦١) وحلية الأولياء (١/١١٤ ـ ١١٦) وعيون الأثر (١/١١٨ ـ ١١٩) .

(١٩٧) فتوح مصر والمغرب (٦٥) .

وسأل المقوقس حاطباً : « أخبرني عن صاحبك ، أليس هو نبيّاً ؟ ! » ، قال : « بلَى » ، قال : « فما له لم يَدْعُ على قومه ، حيث أخرجوه من بلدته ؟ ! » ، فأجابه حاطب : « فعيسى بن مريم حين أراد قومه صلبه ، لم يَدْعُ عليهم حتى رفعه الله » ، قال : « أحسنتَ ، أنتَ حكيمٌ ، جئت من حكيم » (١٩٨) .

وقد كان عمرو بن العاص حكيماً حقّاً في أقواله وتصرّفاته . قيل لعمرو : « ما العقل ؟ » ، قال : « الاصابة بالظنّ ، ومعرفة مايكون بما قد كان » (١٩٩) . وقال : « ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ، إنّما العاقل الذي يعرف خير الشرّين » (٢٠٠) .

وكان يقول : « اعمل لدُنياكَ عملَ مَنْ يعيش أبدا ، واعمل لآخرتك عملَ من يموت غدا » (٢٠١) ، وقال : « اعمل لدنياكَ كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنّك تموتُ غدا » (٢٠٢) .

وقال معاوية بن أبي سفيان يوماً لعمرو : « مابلغ من عقلك ؟ ! ! ، فقال : « مادخلت في شيءٍ قطّ إلاّ خرجتُ منه » (٢٠٣) ، وفي رواية أخرى أنه قال : « لم أدخل في أمرٍ قط فكرهته إلاّ خرجتُ منه » ، وكان يقول : « ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشرّ ، ولكنه الذي يعرف خير الشرّين » (٢٠٤) .

---

(١٩٨) تهذيب الأسماء واللغات (١٥١/١) .
(١٩٩) العقد الفريد (٢٤١/٢) .
(٢٠٠) العقد الفريد (١١/٣) .
(٢٠١) العقد الفريد (٢٧/٣) .
(٢٠٢) العقد الفريد (٢٠٢/٦) .
(٢٠٣) العقد الفريد (٢٤٢/٢) .
(٢٠٤) عيون الأخبار (٢٨٠/١) .

لقد بلغ عدد سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم خمسة عشر سفيراً ، استُشهد واحد منهم فقط وهو في طريقه إلى ملك بُصْرى الذي أرسله النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، قبل أن يبلِّغ رسالته النبويّة إلى ملك بُصْرَى .

وبلَّغ اربعة عشر سفيراً من سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم الملوك والأمراء بالرسائل النبويّة ، وحقّقوا أهدافهم من سفاراتهم تحقيقاً كاملاً في التّبليغ ، ثمّ عاد مَنْ عاد منهم سالماً إلى المدينة المنوّرة ، وبقى مَن بقى منهم في البلاد التي أُرسلوا إليها ، لإسلام الملوك والأمراء وإسلام غيرهم من شعوبهم ودخول الناس في دين الله أفواجا .

ولم يُسْلِم أربعة من الملوك والأمراء : ثلاثة منهم من غير العرب ، وواحد منهم عربيّ ، بينما أسلم الملوك والأمراء الذين أُوفد إليهم عشرة من السّفراء النّبويين .

وهذه النتائج إن دلّت على شيءٍ ، فانّما تدلّ على نجاح السّفارات النّبوية نجاحاً عظيماً .

وقد كان أولئك السّفراء دعاةً للإسلام كما أسلفنا ، التزموا بما جاء في القرآن الكريم حول الدعاة وتصرّفهم في مجال الدّعوة : (ادْعُ إِلى سَبِيْلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ، وجَادِلْهُمْ بالتِّي هي أَحْسَنُ ، إنّ رَبَّكَ أَعْلَمُ بمن ضَلَّ عن سَبِيْلِهِ وهو أعْلمُ بالمُهْتَدِيْنَ) (٢٠٥) .

لقد كانت الحكمة من سِمات السُّفراء النّبويين ، لذلك وُفِّقوا في الدّعوة ونجحوا دعاة .

---

(٢٠٥) الآية الكريمة من سورة النحل (١٦ : ١٢٥) .

٨ ـ سعة الحيلة

يجب أن يكون السّفير ذكيّ القلب ، يفهم الإيماء ، ويناظر الملوك على السّواء (٢٠٦) ، متأنياً صبوراً ، مكيناً من عقله ، المخمّر لرأيه ، المراجع لنفسه ، الذي لا يُمضي إلاّ الرأى المتعقّب المُنقّح (٢٠٧) ، له جمال وعقل (٢٠٨) ، وهو كتوم (٢٠٩) .

وسعة الحيلة التي ترتكز أولاً وقبل كل شيء على الذّكاء . من أهم سِمات السَّفير ، ويصف العرب الرّجل الفَطِن بالحُوَّل القُلَّب ، بمعنى القادر على تقليب الأمور على أوجهها المختلفة ، واحتيال الحيل لإصابة الهدف ، وإدراك النيّات الخفيّة التي يبيّتها المرسل إليه ، والحذر من المزالق واتقاء العواقب غير الحميدة . ومثل هذا الرّجل الفَطِن ، يأخذ دائماً بيده زمام المبادرة ، بحكم يقظته وذكائه وعلمه ، وهو سريع البديهة في مواجهة ماقد يعرض له من مفاجآت غير متوقّعة ، قادر على الحركة في أى اتجاه يريد (٢١٠) .

ومن مظاهر سعة الحيلة التفكير المنظّم ، في معرفة الهدف ، وفي توخى هذا الهدف ، وتنظيم خطة لتحقيق الهدف ، وأن يضع الخطة البديلة في حالة إخفاق الخطة الأولى ، وأن يكون كتوماً في تعيين الهدف والخطة لتحقيقه ،

---

(٢٠٦) رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ـ أبو علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفرّاء (٣٥) ـ تحقيق د. صلاح الدين المنجد ـ بيروت ـ ١٩٧٢ .

(٢٠٧) رسل الملوك (٤٠) .

(٢٠٨) رسل الملوك (٦٠) .

(٢٠٩) رسل الملوك (٦١) .

(٢١٠) مقومات السفراء في الاسلام ـ حسن فتح الباب (٨٥ ـ ٨٦) ـ القاهرة ـ ١٣٩٠ هـ .

وتوقيت التّحقيق ، ومكان التّحقيق ، فاذا تسرّبت النيات والخطط فالنجـــاح مشكوك فيه ، لذلك كان الكتمان ضرورياً للسّفير .

ويمكن أن نعبّر عن سعة الحيلة ، بأهم مقوّماتها ، وهو الذكاء ، والدهاء ، وتوقّع الأحداث ، والحساب لكلّ مايمكن أن يحدث أو يُتوقّع حدوثه .

والحِيلَة في اللّغة : الحِذْق ، وجودة النّظر ، والقدرة على دِقّة التّصرف في الأمور (٢١١) ، ورجلٌ حُوَّلٌ ، ذوحِيَل ، وأمرأة حُوَّل ، ويقال هو أحْوَل منك ، أى أكثر حيلة ، ورجلٌ حُوَّل ، أى بصير بتحويل الأمور ، والحُوَّل ، ذو التّصرف والاحتيال في الأمور (٢١٢) .

وكان سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم يتّسمون بسمة سعة الحيلة ، فكانت تلك السِّمة عاملاً من عوامل نجاحهم في النهوض بواجبـــاتهم التي أُرسلوا لتحقيقها ومن أجلها .

ولعلّ أوضح دليل على تمتع السّفراء النبويين بسعة الحيلة ، هو إسلام مَن أسلم من الملوك والأمراء ومَن معهم من الناس ، بتوفيق الله وتسديده وهدايته .

وأبرز مَن سجّل له المؤرخون مواقف تدلّ على سعة الحيلة ، هو عمرو ابن العاص ، ويمكن ذكر بعض ماسجّله المؤرخون لذلك السّفير النّبويّ أمثلةً على سعة الحيلة .

كان عمرو قائد المسلمين في فلسطين ، وكان الأرطبون قائد الرّوم ، وذلك في أيام فتح فلسطين .

---

(٢١١) انظر : ترتيب القاموس المحيط (٦٤٧/١) ولسان العرب (١٩٦/١٣ – ١٩٧) ومعجم متن اللغة (٢٠٥/٢) والوسيط (٢٠٩/١) .

(٢١٢) لسان العرب (١٩٧/١٣) .

وقد أراد عمرو أن يحصل على معلومات مفصلة عن الرُّوم ، فدخل على الأربطون كأنّه مبعوث من قائد المسلمين ، ولكن الأرطبون شك في أنّه هو القائد ، فاستطاع عمرو التخلّص من الأرطبون بعد أن انكشف أمره للأرطبون ، فلما سمع عمر بن الخطّاب رضى الله عنه ، بخديعة عمرو للأرطبون قال : « لله درّ عمرو ! » ، كما قال عنه الأرطبون : « هذا أدهى الخَلْق » (٢١٣) .

ولمّا فتح عمرو قَيْسَارِيَة (٢١٤) من أرض فلسطين ، سار حتى نزل غَزَّة (٢١٥) ، فبعث إليه عِلْجُها : « أن ابعث إليَّ رجلاً أكلّمه » . وفكّر عمرو في الأمر ، فقال : « مالهذا أحد غيرى » .

وخرج عمرو حتى دخل على العِلْج ، فكلّمه ، فسمع كلاماً لم يسمع قطّ مثله ، فقال العِلْج : « حدّثني ، هل في أصحابك أحد مثلك ؟ ! » ، قال : « لاتسأل عن هذا ، إنى هيّن عليهم إذ بعثوا بي إليك ، وعرّضونى لما عرّضونى له ، ولا يدرون ماتصنع بي ! » فأمر له بجائزة وكُسْوَة ، وبعث إلى البوّاب : « إذا مرّ بك فاضرب عنقه وخُذْ مامعه » .

وخرج عمرو من عنده ، فمرّ برجلٍ من نصارى غَسَّان ، فعرفه . فقال : « ياعمرو قد أحسنتَ الدّخول ، فأحسن الخروج » ، ففطن عمرو لما أراده ،

---

(٢١٣) انظر التفاصيل في الطبري (٦٠٥/٣ ــ ٦٠٧) وابن الأثير (٤٩٨/٢) ، وانظر تفاصيلها في سيرة عمرو بن العاص في : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢١٤) قيساريّة : بلد على ساحل بحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) تعد من أعمال فلسطين ، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام ، وكانت قديماً من أعيان أمهات المدن ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٥/٧) .

(٢١٥) غزّة : مدينة بأقصى الشام من ناحية مصر ، وهي مدينة فلسطينية مشهورة ، بينها وبين عسقلان فرسخان أو اقل في غربيها ، وفيها مات هاشم جدّ النبي صلى الله عليه وسلم ، وبها ولد الامام الشافعي رحمه الله ، انظر مراصد الاطلاع (٩٩٣/٢ ــ ٩٩٤) .

فرجع . وقال له الملك : « ماردّك إلينا ؟ ! » ، فقال : « نظرت فيما أعطيتنى ، فلم أجد ذلك يسع بنى عمّى ، فأردتُ أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العَطِيَّة ، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد » ، فقال : « صدقتَ ! اعْجَل بهم » ، وبعث إلى البوّاب : أن خَلِّ سبيله .

وخرج عمرو وهو يلتفت ، حتى إذا أَمِنَ قال : « لاعُدْتُ لمثلها أبدا » ، فلما صالحه عمرو ، ودخل عليه العِلْج ، قال له : « أنت هو ! ! ! » ، قال : « نعم ، على ماكان من غَدْرك » (٢١٦) .

وكرّر عمرو هذه العملية مرّة ثالثة في أيام فتح مصر (٢١٧) .

وقد تسنّم سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم في حياته وبعد التحاقه بالرفيق الأعلى مناصب إداريّة وقياديّة وقضائيّة رفيعة كما هو معروف ، مما يدلّ على تميّزهم بسمات رفيعة ، منها سِمة : سِعة الحيلة ، ولا عبرة بسكوت قسم من المؤلفين عنها ، فقد سكتوا بدون قصد عن كثير من أمثالها .

٩ ـ المَظْهَر

تميّز سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم بسِمة : رواء المظَهْرَ ، بالاضافة إلى تميّزهم بسمات : رواء المخبر ، فجمعوا رواء المظهر إلى رواء المخْبَر ، فكان مظهرهم الجميل دليلاً على مَخْبَرِهم الطّاهر ، والأثَر يدلّ على الأثير ، والبعْرة على البعير ، كما يقول المثل العربيّ المشهور .

وقد حرص النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، على اختيار سفرائه من بين أصحابه الذين تتوافر فيهم صفات شكلية جميلة إلى جانب سِماتهم العقلية والنفسية التي ذكرناها في تعداد : سِمات السّفراء النبوّيين .

---

(٢١٦) العقد الفريد (١/١٢٤ ـــ ١٢٥) .

(٢١٧) انظر التفاصيل في : فتوح مصر والمغرب (٩٣) .

والمهمّ في الاسلام المَخْبر لا المظهر في تقويم المسلم ، فالاسلام لايُقيم وزناً لوسامة الوجوه وبهاء الملامح ، ولايحفل باختلاف الأشكال والألوان ، لأنّه دين الجوهر لاالمظهر ، فلا فرق بين الأبيض والأسود ، والله سبحانه وتعالى يقول : (إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) (٢١٨) ، وقال عليه الصّلاة والسّلام : « كلّكم بنو آدم ، وآدم خُلِق من تُراب » (٢١٩) ، وقال : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ (٢٢٠) ذى طِمْرَيْن (٢٢١) تَنْبُو عنه أعين الناس ، لو أقسم على الله لأبرَّه » (٢٢٢) ، وقال : « إنّ الله تعالى لاينظر إلى صوركم وأموالكم ، إنمّا ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (٢٢٣) .

والواقع أنّه لاتناقض بين مبادئ الاسلام في المساواة بين الناس ، اشتراط رسمه المظهـر في السّفير ، لأنّ الاثر هنا لايتعلّق بالحقوق أو الواجبات التي يسوّي الاسلام فيها بين الناس ولابالموازين التي يُقاس بها المسلم ، ولكنه يتعلّق بالأوضاع الوظيفية ومقتضياتها وبالقاعدة الادارية التي تقول بضرورة وضع كل مُسلم في المكان الذي تؤهله له طبيعة وصفاته ومؤهّلاته ، وهذه المبادئ لا تتنافى مع مبادئ الاسلام طالما روعيت العدالة في تطبيقها . بل إنهّا تتّفق مع أصول الحكم والادارة في الاسلام ، وتستند إلى المبدأ الاسلامي القائل : « كلٌّ مُيَسَّر لما خُلق له » ، وإلى المبدأ التشريعي

---

(٢١٨) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ١٣) .
(٢١٩) رواه البزار عن حذيفة ، وهو حديث حسن ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (١٥٨/٢) .
(٢٢٠) أغبر : غير الغبار لونه .
(٢٢١) الطمران : تثنية طمر ، وهو الثوب الخلق .
(٢٢٢) حديث صحيح ، رواه مسلم وأحمد بن حنبل، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٣٥/٢) .
(٢٢٣) حديث صحيح ، رواه مسلم وابن ماجة ، انظر مختصر شـرح الجامع الصغير للمناوي (١٤٤/١) .

الأساسي القائل : « لاضَرَرَ ولاضِرار » (٢٢٤) .

إنّ من سِمات السفير ، أن يكون حَسَن الرّواء والمظهر (٢٢٥) ، وسِيْماً قسيماً (٢٢٦) ، ويُستحب في السفير تمام القَدّ ، وَعبالة الجِسم ، حتى لايكون قميئاً . وإن كان المرءُ بأصْغَرَيْهِ ، ومخبوءاً تحت لسانه ، ولكنّ الصورة تَسْبِق اللّسان ، والجثمان يستر الجنان (٢٢٧) .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلّم لجعفر بن أبي طالب : « أشْبَهَ خَلْقُكَ خَلْقي ، وخُلُقُكَ خُلُقِي » وفي رواية أخرى : « أشْبَهْتَ خَلْقِي وخُلُقِي » ، وفي رواية ثالثة : « إنّكَ شَبِيْهُ خَلْقِي وخُلُقِي » (٢٢٨) ، فهو أحد المعدودين من المشبّهين برسول الله صلى الله عليه وسلّم(٢٢٩) .

ولم يفصِّل مَنْ كتب على جعْفر بن أبي طالب مظهره ، ولكنهم فصّلوا مظهر النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، وَوَصْفُ النبيّ صلى الله عليه وسلّم في مظهره بلغة العصر اعتماداً على كتب الحديث هو (٢٣٠) أنّه : كان

---

(٢٢٤) مقومات السفراء في الاسلام (٦٠) ـ حسن فتح الباب ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة ـ ١٣٩٠ هـ .

(٢٢٥) رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ـ (٣٤) ـ أبو علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء ـ تحقيق د. صلاح المنجد ـ ط ٢ـ بيروت ـ ١٩٧٢ م .

(٢٢٦) رسل الملوك (٣٥) .

(٢٢٧) رسل الملوك (٤٧) ، والعبالة : الضخامة وامتلاء الجسم . والعبل : الممتلىء الجسم . والقمىء كأمير : اذا ذل وصغر في الأعين ، فهو قمىء .

(٢٢٨) اشبهت خلقي و خلقي ، رواه الشيخان ، انظر تيسير الوصول (٢٧٥/٣)، وطبقات ابن سعد (٣٦/٤) .

(٢٢٩) انظر اسماءهم في المحبر (٤٦ ـ ٤٧) .

(٢٣٠) انظر وصف علي بن ابى طالب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ووصف

النبيّ صلى الله عليه وسلّم ليس بالطويل ولا القصير ، ولكنه كان وسطا ، بارع الجمال ، مدوّر الوجه كالقمر حين يكون بدراً أو كالشّمس ، أبيض اللّون مشرّباً بحمرة ، شديد سواد العينين ، أهداب أجفانه طويلة الشّعر ، عظيم رءوس العِظام مثل الركبتين والمرفقين والمنكبين والكاهل وما يليه من جسده ، شعره بين السُرَّة وما تحتها دقيق ، غليظ الكفين والقدمين ، شعره ليس سبطا ولاجَعْداً ، يمشي بقوّة وثبات كأنّه ينحدر من مرتفع عالٍ ، يلتفتُ بكلّ رأسه ، كبير الرأس ، واسع الجبين، في بياض عينيه حُمرة ، كثيف شعر الحواجب بدون قَرَن ، أكحل العينين من غير كحل ، سهل الخدين ، في عظم أنفه أحديداب ، ضليع الفمّ ، مفلّج الأسنان أبيضها ، طويل العنق ، عريض الصّدر ، بعيد مابين المنكبين ، سواء البطن والصّدر ، لم يُعيبه عِظَم البطن ، ليس في أسفل صدره وثدييه شعر ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصّدر ، رحب الراحة ، تبرق أسارير وجهه إذا كان مسروراً ، وإذا غضب ظهر الغضب على وجهه ، ضخم الرأس واللّحية ، شعر رأسه بين أُذنيه وعاتقه طوله الى شحمة أذنه ، حلّته غالباً بيضاء وقد تكون صفراء أو حمراء ، تُوفي وليس في شعره ولحيته عشرون شعرة بيضاء ، لم يخضب ، طيّب الرائحة ، نظيف البدن ، والثياب ، إلى أبعد الحدود ، مَن رآه بديهة هابه ، ومَن خالطه معرفةً

الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما للنبي صلى الله عليه وسلم ، ووصف انس بن مالك رضى الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم ، وحديث الامام احمد بن حنبل والترمذي في وصف النبي صلى الله عليه وسلم، وانظر تلك الأوصاف في : ومضات من نور المصطفى صلى الله عليه وسلم (٢٩ ـ ٣٠) .

أحبّه » (٢٣١) .

وقد أشبه خلْق جعفر خلق النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، فهو جميل المظهر حقاً ، وصدقت زوجة جعفر وهي أسماء بنت عُمَيْس ، حيث وصفته بعد استشهاده قائلة : « ما رأيت شاباً من العرب كان خيراً من جعفر (٢٣٢) .

وصدقت في رثائه حين قالت :

فآليتُ لاتَنْفَكُّ نفسي حزينةً
عليكَ ولا ينفكُّ جِلْديَ أَغْبَرا
فللّهِ عَيْنا مَنْ رأى مِثْلَهُ فَتىً
أَكرَّ وأَحْمَى في الهياجِ وأصبرا (٢٣٣)

وكان دِحْيَة بن خَلِيفَة الكَلْبِيّ جميلاً من أجمل النّاس (٢٣٤) ، وكان أجمل النّاس وجْهاً (٢٣٥) ، يُضرب به المثل في حسن الصّورة (٢٣٦).

وكان عبدالله بن حُذافة السّهْمِيّ القُرَشي يتّسم برواء المظهر ، فقد ذكرنا أن الرّوم أسرته ، وأنّ ابنة ملك الرّوم رغبت به زوجاً لها ، على شرط اعتناقه المسيحيّة، ولكنّه رفض الوعد والوعيد ، ولم يستجب لملك الرّوم ، وبقي مسلماً ، غير ملتفت للاغراء (٢٣٧) .

---

(٢٣١) ومضات من نور المصطفى صلى الله عليه وسلم (٣١) ـ ط ٢ـ القاهرة ـ ١٣٩٩ هـ
(٢٣٢) طبقات ابن سعد (٤١/٤) .
(٢٣٣) البداية والنهاية (٢٥٣/٤) .
(٢٣٤) تهذيب الاسماء واللغات (١٨٥/١) .
(٢٣٥) تهذيب التهذيب (٢٠٦/٣) .
(٢٣٦) الاصابة (١٦٢/٢) .
(٢٣٧) أسد الغابة (١٤٣/٣) .

وكان حاطِب بن أبى بَلْتَعَة حسن الجسم ، خفيف اللّحية ، أجْنأ ، شَثْن الأصابع (٢٣٨) .

وكان شُجاع بن وَهْب الأسدى رجلاً نحيفاً طِوالا أجْنأ (٢٣٩) ، وهي ملامح تدلّ على رواه مظهره .

وكان عمرو بن العاص رَبْعَة ، قصير القامة ، وافر الهامة ، أدْعَج أبْلَج (٢٤٠) ، يخضب بالسّواد (٢٤١) ، يهتّم بملبسه ومأكله (٢٤٢) ، فكان له رواء للمظهر طبيعيّ ، ورواء للمظهر اصطناعيّ .

ولا نصّ على رواء مظهر العلاء الحَضْرَمِيّ ، ولكنّه وأهله كانوا حلفاء بنى أُمَيّة ، وهم معرفون بالاهتمام بمظهرهم قبل الاسلام وبعده ، فمن المعقول أن يقتدى الحليف بحليفه ، وبخاصة وأنّهم يعيشون بتماس شديد . متعاونين في البأساء والضَرّاء .

والصَعْبَة أخت العلاء ، كانت تحت أبى سُفيان بن حرب ، وكان أبو سفيان سيِّد قريش وقائدهم حتى يوم فتح مكّة المكرّمة في السنة الثامنة الهجريّة، فليس من المعقول أن يتزوّج الصّعبة وهي ليست قرشية ويتخلى عن بنات قومه من قريش ، إلاّ إذا كان وراء زواجه بها جمالها غير الاعتياديّ ، فأغراه بها جمالها الباهر ، واختارها حليلة له . فلمّا طلّقها أبو سفيان ، خلف عُبَيْدالله بن عُثمان التَّيْمِيّ ، فولدت له طلحة بن عُبَيْدالله أحد العشرة

---

(٢٣٨) طبقات ابن سعد (٣/١١٤) ، واجنأ : الذي على كاهله انحناء على صدره. والشثن : الغليظ الخشن ، يقال : شثن الأصابع .

(٢٣٩) طبقات ابن سعد (٣/٩٤) .

(٢٤٠) فتوح مصر والمغرب (١٩٠) وانظر الاصابة (٥/٢) .

(٢٤١) فتوح مصر والمغرب (٢٣١) وانظر اسد الغابة (٤/١١٧) .

(٢٤٢) فتوح مصر والمغرب (١٩٠) و (٢٤١) وانظر اسد الغابة (٤/١١٧) .

المبشّرين بالجنّة (٢٤٣) ، مما يدلّ على جمالها حتى بعد أن تخلّى عنها ريعان الشباب ، فما كسدت بعد طلاقها ، بل أقبل عليها أشراف قريش . وكان طلحة بن عُبَيْد الله رضى الله عنه حسن الوجه ، دقيق العِرْنَين (٢٤٤) ، ولا يُستبعد أن يكون طلحة قد خوّل . فورث الجمال عن أُمّه وأخواله ، ومنهم العلاء .

وما يقال عن العلاء ، يقال عن المهاجر بن أبى أُمَيَّة المخزومى ، فلا نَصّ على رواء مظهره ، ولكنّ المصادر تنصّ على أنّ شقيقته أُمّ سَلَمَة أمّ المؤمنين رضى الله عنها ، كانت : « موصوفة بالجمال البارع ، والعقل البالغ ، والرأى الصائب » ، ولعلّ اختياره سفيراً دليل على رواء مظهره ، وأنّه كان يشابه شقيقته في مظهرها ومخبرها أيضا (٢٤٥) .

وكان جرير بن عبدالله البَجَلِيّ جميل الصورة ، وحين قدم على النبيّ صلى الله عليه وسلّم مُسْلِماً من اليَمَن . قال النبيّ صلى الله عليه وسلّم : « إنّه يَقدم عليكم من هذا الفجّ من خير ذى يَمَن ، وإنّ على وجهه مَسْحة ملك » ، فلما دخل ، نظر النّاس إليه ، فكان كما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وأخبروه بذلك . فحمد الله تعالى (٢٤٦) .

وكان عمر بن الخطّاب رضى الله عنه يقول : « جرير يوسف هذه الأُمّة » ، لجماله وكماله وحسن فعاله (٢٤٧) .

---

(٢٤٣) طبقات ابن سعد (٣٥٩/٤) .
(٢٤٤) طبقات ابن سعد (٢١٩/٣) ، والعرنين : ما صلب من عظم الأنف .
(٢٤٥) الاصابة (٢٤١/٨) .
(٢٤٦) البداية والنهاية (٥٥/٨) .
(٢٤٧) البدء والتاريخ (١٠٣/٥) وانظر تهذيب الأسماء واللغات (١٤٧/١) .

وكان طويل القامة ، يصل إلى سنام البعير ، يخضب لحيته بزعفران بالليل ، ويغسلها إذا أصبح (٢٤٨) .

رآه عبدالملك بن عُمَيْر فقال : « رأيتُ جريراً ، كأنَ وجهه شقّ قمر » (٢٤٩) .

وكان جرير من المتعممين بمكّة المكرّمة ، مخافة النِّساء على أنفسهم من جمالهم (٢٥٠) .

وكان مُعَاذ بن جَبَل رجلاً طُوالاً ، أبيض ، حسن الثَّغر ، أكحل العينين ، بـرّاق الثَّنايا (٢٥١) ، حسن الشَّعْـر ، عظيم العينين (٢٥٢) ، جميلاً ، من أفضل سادات قومه ، سمحاً لايُمْسِك (٢٥٣) ، أحسن النّاس وجهاً (٢٥٤) .

وكان أبو موسى الأشعرى خفيف الجسم ، قصيراً ، أثطَّ (٢٥٥) ، اللِّحية ، ويبدو أنّه لم يكن جميلاً بالدرجة الكافية ، ولكن مظهره كان مقبولاً على العموم ، وعلى كل حال كانت سفارته إلى اليمن لا إلى دولة أجنبية كالفُرس والرّوم ، أو إلى عرب لهم صلة مباشرة ذات جذور عريقة بالفُرس والرّوم كالغساسنة في بلاد الشّام ، والمناذرة في العراق ، فهو عربي يَمَني

---

(٢٤٨) تهذيب الأسماء واللغات (١٤٧/١) .
(٢٤٩) البداية والنهاية (٥٦/٧) .
(٢٥٠) المحبر (٢٣٢) .
(٢٥١) طبقات ابن سعد (٥٩٠/٣) ، وانظر الاستبصار (١٤٠) .
(٢٥٢) الاستيعاب (١٤٠٣/٣) .
(٢٥٣) الاستيعاب (١٤٠٤/٣) .
(٢٥٤) اسد الغابة (٣٧٦/٤) .
(٢٥٥) طبقات ابن سعد (١١٥/٤) والمعارف (٢٦٦) ، وانظـر المحبر (٣٠٥) ، والاثط : هو الذي لا لحية له ، وهو الكوسج ، وهو السناط .

أُرسل إلى عرب اليمن بنى قومه وإلى اليمن وطنه ، وأهـل مكّة أدرى بشِعابها ، كما يقول المثل العربيّ القديم .

إنّ مظهر المرء يؤثّر في مَنْ يراه من الناس ، فاذا كان مظهره مقبولاً ، كان بداية طيّبة لتقبُّل مايعرض ولتحقيق ما يستهدف . أما إذا كان مظهره سيئا ، فقد يكون ذلك بداية للاخفاق .

وصدق رسول الله عليه الصّـلاة والسّلام : « إذا أَبْردتُمْ (٢٥٦) إليَّ بَريداً ، فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم » (٢٥٧) .

نهاية المطاف

تلك هي مجمل سِمات سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، استنبطناها من سِيَرِهم ومن دراسة المؤلفات الخاصة بالسفارات النبوّيّة ، وضربنا على كلّ سِمة من تلك السِّمات من سِيَرِهم الأمثال .

وهناك حافزان حملاني على تأليف هذا البحث : حافز مباشر ، وحافز غير مباشر .

أما الحافز المباشر ، فهو الأمل في اقتداء المسئولين العرب والمسلمين بالنبيّ صلى الله عليه وسلّم في اختيار السُّفراء ، اهتداءً بسمات السُّفراء النّبويين ، الذين كان نجاحهم في سفاراتهم النبوّيّة واضحاً مشهودا ، فنشروا الاسلام في البحرين وعُمان وحَضْرَموْت واليَمَن واليَمامة وبلاد الحبشة ، نتيجةً فورية لسفارات النبيّ صلى الله عليه وسلّم إلى تلك الأصقاع بالدعوة إلى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والاقناع بالحُسْنى . كما

---

(٢٥٦) أبردتم : أرسلتم رسولا .

(٢٥٧) حديث حسن ، رواه البزار ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢٣/١) .

مهّدوا لنشر الاسلام في العراق وأرض الشام ومصر وبلاد فارس وبلاد الرُّوم، وفي كلّ موطن وصل إليه سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، فلم تمض سنوات معـدودات على السّفارات النبويّة إلى تلك الأصقاع ؛ حتى جاءها نصر الله والفتح ، ودخل النّاس من أهلها في دين الله أفواجا .

كانت تلك السّمات : الاسلام والانتماء إليه ، فلا انتماء إلاّ إليه ، ولا خلاص إلاّ له ، ولو خُيِّر أحدهم بين التّخلي عن عقيدته والتّخلي عن روحه ، لاختار بدون تردّد التّخلي عن روحه ، إخلاصاً لعقيدته ودفاعاً عنها ووفاءً لهـــا .

والسِّمة الثانية ، هي الفصاحة ، لِيُبَيِّن هدَفهُ ، والغاية التي جاء من أجلها ، ويدافع عن الاسلام ، ويردّ على المعترضين ، ويناقش المتشككين ، بمنطق واضح وبيان مُبين .

والسِّمة الثالثة ، هي العلم ، العلم بتعاليم الدين ، والعلم بتعاليم الاديان السّائدة ، والعلم بالأوضاع الاجتماعية والسياسـية والاقتصادية في بلده وفي بلد الملك المرسل إليه ، والعلم بالملك الذي سيقابله والحاشية التي تحيط به، وللعلم أثره ، وللعالم تأثيره ، ولايستوي الذين يعملون والذين لايعلمون .

والسِّمة الرابعة هي حُسْن الخُلُق ، فهو زينة للسّفير ، ومدخل لنجاحه، وسبيل إلى قلوب الذين أُرسل إليهم ، ووسيلة لاعطاء انطباع متميِّز عن الذي أرسل السفير ، وعن الأُمّة التي ينتسب إليها السّفير .

ولانجـاح لسفير لا اخـلاق لـه .

والسِّمة الخامسة هي الصَّبر الجميل ، وكل عمل السَّفير بحاجة إلى الصّبر الجميل ، وما أفلح سفير يجتاحهُ الجزع ، فإذا جزعَ السّفير فقد خسـر كلّ شيء ، وإذا صبر فقد يسّر لواجبه أوّل عوامل النّجاح .

والسِّمة السّادسة هي الشّجاعة والاقدام ، فما وُفِّق جبان في عمل عام، ولايصلح الجبان لأي عمل عام ، ولايفلح الجبان حيث أتى .

والسِّمة السّابعة هي الحِكْمَة ، وهيهات أن يحقّق الأحمق هدفه ولو كان ظاهراً ، والحكيم هو الذي يحقّق هدفه ولو كان مستعصياً ، وبالحكمة تلين القلوب وتستكين النفوس ، وبدونها تقسو القلوب وتشتد النفوس ويصبح التّفاهم صعباً إن لم يكن مستحيلا .

والسِّمة الثامنة هي سعة الحيلة ، فذكاء القلب يفتح ما استُغلق من القلوب ، وغباء القلب يغلق ما استُفتح من القلوب ، والسّفير ذو الحيلة الواسعة يفهم مايسمع ويستنبط ممـا يسمع ، فـاذا تعذر عليه السمـع لم يُعجزه التوصل إلى السّماع ، وهو على كل يعود موفّقاً ، لايعود إلاّ بتحقيق أهدافه كاملة غير منقوصة ، مهما يصادف من مشاكل وصعوبات .

والسِّمة التّاسعة هي المظهر الجميل ، فهو القادر على استهواء القلوب القاسية واستصفاء النّفوس الصعبة ، بعكس المظهر القبيح ، فهو الكفيل بادبار القلوب اللّيِّنَة واستكبار النفوس الهيِّنة . إنّها تجعل الصّعب سهلا ، وغير الممكن ممكنا ، وتُيسِّر الأمور ، وتبسِّط المعقّد ، وتفتح القاوب والنفوس على مصراعيها .

وكم أتمنىّ ، ويتمنى كلّ عربيّ ومُسْلم ، أن يضع المسئولون العرب والمسلمون هذه السِّمات نصب أعينهم ، في حالة اختيار السّفراء الذين يمثّلون بلادهم في البلاد العربية الشّقيقة والدول الاسلاميّة والدول الأجنبية ، وبذلك تُرفع مكانةُ السّفراء العرب والمسلمين وكافة السّفارات العربية والاسلاميّة في الدّاخل والخارج ، وتصبح لهم مكانة في المنظّمات الدولية وبين الدول كافة في العـالـم .

فان استطعتُ أن أُوجِّه أنظار المسئولين العرب والمسلمين إلى هذه السِّمات التسع الواجب أن يتحلىّ بها السُّفراء العرب والمسلمون ، أُسوة بسفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم في سِماتهم المتميِّزة ، فذلك غاية ماأصبو إليه وأتمنّاه على الله .

وإن لم استطع أن أُوجِّه أنظار المسئولين العرب والمسلمين إلى هذه السِّمات التِّسع ، أو استطعت أن أُوجِّه أنظارهم فقرأوها ولم يعملوا بها ، ولم يقتدوا بسمات سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، فقد بذلتُ جهدي وما أردتُ إلا الاصلاح، والتوفيق من اللهسبحانه وتعالى وحدهو: «إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكل امرئٍ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت هجرته إلى دُنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ماهاجر إليه » ، أخرجه الخمسة (٢٥٨) .

أما الحافز غير المباشر ، فهو خدمة السِّيرة النّبويّة ، في ناحية مهمّة جداً من نواحيها ، قد تَسدّ حاجةً وتملأ فراغاً في المكتبة العربيّة والاسلامية ، ينبغى ألاّ يبقيا بعد اليوم باذن الله .

وليست بي حاجة إلى أن أكشف جهودي ومنهجي في تأليف هذا البحث الذي استمرّ ثلاث سنوات ، اتّصل فيها اللّيل بالنّهار ، وأتوقّع أن يكتشف القارىء والدارس والباحث والناقد الجهد والمنهج ، والله أسأل أن يفيد بهذا الجهد ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .

والحمد لله الذي أنعم علىّ بالتفرّغ لخدمة السِّيرة النّبوية ، وقادة النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، وسفراء النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، وقادة الفتح الاسلاميّ ، والعسكرية العربية الاسلامية ، فلولا تفرّغيّ الكامل لهـذه

---

(٢٥٨) تيسير الوصول الى جامع الاصول من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (٢٨٢/٤) .

الدراسات لما استطعت أن أفعل شيئا، وما أصدق الشافعيّ رحمه الله في قولته: « لو كُلِّفتُ بشراء بَصَلة ، لما استطعتُ حلّ مَسْأَلة » .

والله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بُكَرةً وأصيلا . وصلى الله على سيدى ومولاى رسول الله ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ورضي الله عن قادة النبيّ صلى الله عليه وسلّم وجنوده ، وسفرائه ، وكتّابه ، وأُمرائه ، وقضاته ، وجباته ، وولاته ، وحرّاسه وحماته ، وأولاده وبناته وزوجاته .

ورضى الله عن قادة الفتـــح الاسلامي وجنوده ، وقادة الفكر الاسلامي وجنوده ، وعن كلّ من خدم العربيّة لغةً والاسلام ديناً ويخدمها إلى يوم الدّين بأمانة وقوّة وإخلاص لوجه الله .

وآخر دعوانا أنْ الحمد لله ربِّ العالمين ، وحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل .

★ ★ ★